

محمد عبد الفتى حسن

بطل السنن

بينت الأبطال

ليس بطل هذه القصة التاريخية شخصاً من صنع الخيال ،
أو صورة مما خلقه الوهم ، أو اسماً من الأسماء التي يلفقها صنّاع
المغامرات في رداء براق يختلب الألباب ، ويشوق الأسماع .

إنه بطل بما تحمله لفظة البطولة من معان ، إنه رجل
عاش في عالم الواقع ، لا في دنيا الخيال ، إنه فتي عربي الدهاء ،
مُضْرى الآباء . ركب الله جسمه من اللحم والدم كما تتركب
بقية الأجسام ، ولكن أودع بين جنبه نفساً بعيدة المطامح
نائية المطارح . حتى لتكاد الأرض على رحابها تضيق بآماله ،
والدنيا على اتساع شعابها تصغر دون مآربه .

وما عجب أن يكون بطل هذه القصة قد قُدَّ على هذا
الطراز ، وفُصل على هذا القالب . بل قد يكون أعجب
العجب لو أنه شذ عن هذا الطراز . فمن الظلم أن لا يشبه المرء
آباءه . ومن يشابه أبه فما ظلم . . .

لقد أنجبت أسرة هذا الفتي الماجد الكريم للإسلام فتیاناً

سُم الأَنُوف بيض الوجوه ، كرام الأَحساب ، وكانوا سادة في الجاهلية حين كانت الأصنام تتخذ آلهة من دون الله . فلما جاء الإسلام توج السيادة فيهم ، وعقد الألوية لهم ، ونشر دنهم طائفة في شعاب الأرض يفتحونها بلداً إثر بلد ، ويُسقطون معاقل الشرك فيها معقلاً بعد معتل . ولا تزال الأرض البعيدة السحيقة ترمي بهم في أقطارها ، نشرأ للكلمة الله ، وهم لا يشكون سيراً ، ولا يخافون بأساً ولا رهقاً .

إنهم بنو تقيف في الطائف . والطائف رِبَضٌ من أرباض مكة ، نضر الله أرضها ، وأبردَ نسمات الهواء فيها ، وأخرج من رياضها نباتاً مختلفاً ألوانه ، وفاكهة تسقى بماء واحد ، ويفضل الله بعضها على بعض في الأكل . . .

لقد اشتهرت الطائف فوق بساتينها ورياضها بدباغة الجلود والأُهب الطائفية المعروكة كما يذكر الحمداني - صاحب صفة جزيرة العرب - في وصفها وكان أُهبَ شبابها وجلود أجسامهم المعروكة تُوائم الأُهب والأدُم التي يصنعونها . ففهم من الجلد في المواقف ، والصبر على المكاره ، والثبات في المعارك ما يذكر دائماً بمتانة الأُهب التي تصنع بأيديهم ،

والتي حازت في رحاب الجزيرة كلها شهرة عريضة ، كما حازت سيوف الهند شهرة في القتال ، والرماحُ الحطّية شهرة في المصاولة والنزال .

كانت الطائف جلها أغلبَ مساكن بني ثقيف ، ولهم فيها السيادة والجاه من قديم . وفي بعض رجالهم في الجاهلية وجاهة في النسب ، وعراقة في الحسب ، وعظمة في المنابت والأصول . أليس منهم عروة بن مسعود الثقفي الذي عادلته به قريش في عنادها ولجاجها محمداً عليه السلام ، وتمنت لو نزل عليه القرآن واختصه الوحي ، فقالوا : (لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) ؟

أليس منهم معتب بن مالك الثقفي الذي بعثه رسول الله إلى قومه يدعوهم إلى الإسلام ، ويبشرهم بالدين الجديد الذي جاء يفرق بين الحق والباطل ، ويوضح المعالم بين الظلمات والنور؟

أليس منهم غييلان بن سلمة الذي كانت له في قومه الرياسة وإليه مقال الحكم ، ومفتاح الأمر والنهي ، فوفد على كسرى أيام كانت وفود العرب تفدُ على دولة الأكاسرة

يفاخرون بأبائهم ، وينذكرون مآثرهم ، ولا يباليون ، وبين
 يدي كسرى الصولحان وعلى رأسه التاج ، أن يتنقصوا كل أمة
 غير العرب ، وكل لغة غير لغة العرب ، وكل مكرمة غير
 المكارم العربية ؟

أليس منهم القاسم بن محمد أبو بطلنا ، وهو الذي كان
 والياً على البصرة من قبل الحجاج بن يوسف ، فأحسن الولاية ،
 وضبط الأمور ، وأجزأ في المهم الذي انتدب له ؟

أليس منهم الحجاج بن يوسف الثقفي ، وأبوه ابن عم
 بطلنا ، وهو من هو في التاريخ الإسلامي ، وفي توسيع رقعة
 المملكة الإسلامية ، وفي تشجيع الفتوح ، وفتح الشغور ، على
 الرغم مما عيب عليه من قسوة بالغة في إراقة الدماء ، وفي الضرب
 على الأيدي ، وفي أخذ البريء بالمسيء ، حتى سكنت له
 وللأمويين ثوائر الفتن ، وخدمت نار الخلاف ، وسكنت ريح
 الثورات التي كانت تهدد الدولة العربية القائمة بصدع كبير ،
 وأمر خطير ؟

فلم يكن بطلنا محمد بن القاسم إذن خارجاً على السنن
 الذي بناه آباؤه . إنه من قوم كانوا يرون الموت على الفراش

عاراً ، وكانوا يرون أن السيادة لا يمنع منها سنٌ ، ولا يقيدتها حساب بعمر . فقد يطول العمر ولا سيادة لصاحبه ، وقد تقصر مسافة الأعمار ، ولكنها تزدهم بالهمم الكبار التي لا منتهى لها .

ألم يسد الحجاج نفسه وهو فوق الخامسة والعشرين ، ثم صارت إليه ولاية الحجاز وهو في الثالثة والثلاثين ، ثم انتهت إليه ولاية العراق وهو حول الخامسة والثلاثين ؟ ولقد كان الحجاج يتعجل مراتب السيادة والرياسة كأنه معها على رهان . فهو في أول أمره معلم صبيان بالطائف ، وفي الخطوة التالية نراه شرطياً في شرطة عبد الملك بن مروان ، فتأتيه الرياسة نتيجة لموقف حازم منه على المتقاعدين عن القتال ، فإذا هو رئيس مقدم عند الخليفة الأموي الذي أعطى فراسة في اختيار الرجال .

لا ! لقد فاق بطلنا محمد بن القاسم ابن عم أبيه الحجاج في السؤدد على حداثة من السن ، بل فاق فتیان ثقيف جميعاً ، بل فاق آلاف مؤلفة من رجال المسلمين وقوادهم ، بل فاق كثرة كاثرة ، وأمةً ساحقة من رجال العالم كله ، شرقيه وغربيه ،

قديمه وحديثه ، عُربه وعجمه ، حين فتح الله على يديه « السند » للمسلمين ، وسنه سبعة عشر عاماً ، لا تزيد ، بل قد تنقص ببضعة من الشهور . . .

لقد قالوا في عقل الحجاج بن يوسف الثقفي إنه لا تدانيه عقول الرجال ، فهو راجح الميزان في التفكير والتدبير إذا قورن بمن عداه من كبار العقول ، ولكن محمد بن القاسم - بطل الهند والسند - ولا يكاد القواد العالميون يبلغون مداه أو يلحقون غبار فرسه ، حين تنصب للرجال الموازين القسط ، فلا يتحيف عليها اعتبار لمذهب ، أو ميل مع تعصب .

واللهم احفظنا من التعصب ، وخاصة إذا جاء ممن يُرجى منهم الانتصاف ، ويؤمل فيهم العدل ، وتُنتظر منهم كلمة الصدق . ولقد كان أهل ابن القاسم وقومه وقبيله موضعاً للانتقاص من الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان . وهو انتقاص دفع إليه التجنى على الحق ، والإنكار للتاريخ ، والطمس لمعالم المتعلم المعروف ، والاستجابة لدواعي الغضب حين يميل بصاحبه إلى الهوى ، فيخرجه عن جادة الرأي الصحيح . . .

فقد ذكر التاريخ والمؤرخون أن عبد الملك بن مروان غضب على الحجاج بن يوسف يوماً لأنه أهان أنس بن مالك خادم رسول الله عليه السلام ، وقد امتد به الأجل حتى أدرك عصر عبد الملك ، فكتب إلى الحجاج كتاباً بالغ الشدة ، يادى التهديد ، واضح السخرية ، حين يقول في بعض مقاطعه : (أنسيت مكاسب آباءك بالطائف ، وحفرهم الآبار ، ونقلهم الصخور على ظهورهم في المناهل ؟) .

ولعل كلاماً لم يُخرجه الغضب والسخط عن طريق الصدق والحق مثل هذا الكلام . . . فإن آباء الحجاج وآباء بطلنا محمد بن القاسم هم كما ذكرنا من بني ثقيف في الذؤابة ، وإليهم انتهت الرياسة في الطائف ، والوفادة على كسرى في الجاهلية ، والدعوة إلى الإسلام في بداية الدعوة ، حين شكَا النبي عليه السلام إلى الله ضعفه وقلة حيلته . وحين أغرى سفهاء الطائف الصبيان بالنبي ، يرمونه بالحجارة ويتصايحون عليه ، حتى اجتمع الناس عليه وألجأوه إلى حائط من حوائط مدينة الطائف ، فجلس إلى الجدار بعد أن ذهب عنه بعض الرّوع ، واطمأن بعض الاطمئنان ، واتجه إلى الله قائلاً : « اللهم إليك

أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس . . .
 اللهم يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربي ، إلى
 من تكلمني ؟ إلى بعيد يتجهمني ؟ أم إلى عدو ملكته أمري ؟ إن لم
 يكن بك عليّ غضبٌ فلا أبالي ، ولكن عافيتك هي أوسع .

وفيم ينكر عبد الملك بن مروان سيادة قوم الحجاج وابن
 عمه محمد بن القاسم ، وهؤلاء أهل مكة أنفسهم يشهدون للحجاج
 بالشرف وعظم الأصل حين دخل مكة مخلصاً لها من يد عبد الله
 ابن الزبير ، فقد اعتذر الحجاج لأهلها لقلّة ما منحهم إياه
 من الصلّات والأعطيات ، فقال قائل منهم : إنا والله لا نعدرك
 وأنت أمير العراقين ، وابن عظيم القرينتين .

وما لنا نحن وللحجاج الآن ؟ إنما جئنا به هنا لأنه مع
 بطلنا ابن القاسم من نبعة واحدة ، ودوحة واحدة ، أخرجت
 للعرب والإسلام أشدّ الرجال ، وأحدّ النصال . ولقد كان بطلنا
 محمد بن القاسم - فوق قرابته القريبة للحجاج - صنيعه من
 صنائعه ، وسهماً من سهوم كنانته ، رمى به في أفاصي الهند ،
 ومنازح السند فأبعد المرعى ، وعاد من هناك على الملك الإسلامي
 الناشئ بملك كبير . . .

وعجيب أن يلتقى هنا البطل محمد بن القاسم وابن عمه الحجاج لقاء لم يكن منه مناص " ولا عنه معدى . ونحن نردُّ بطل السند إلى أصله ، وننسبه إلى آبائه . فإذا ذكرت ثقيف خطر على البال - في الحال - اسم الحجاج الثقفي ، واسم محمد بن القاسم الثقفي ، كما خطرت على البال أسماء عشرات وعشرات من بنى ثقيف ، فيهم البرُّ والفاجر ، وفيهم الطيب والحبيث ، وفيهم الشهيد الذي قتل مع أمير المؤمنين عثمان ، وهو المغيرة بن الأحنس ، وفيهم الذي لم يرو سَيْفَه من الدماء ، وهو الحجاج .

على أننا سنلتقى بالحجاج هنا أكثر من مرة ، فهو الذي صنع بطل السند على يديه وعينيه ، وهو الذي أرسله ليخوض الغمرات في حروب العراق ، قبل أن يبعث به على رأس الجيش العربي إلى بلاد السند ليحطم فيها الأصنام ، ويرفع فيها لواء الإسلام .

ولتكن للحجاج عيوبه وخطاياها بجانب آثاره في توطيد دالة ، ودعم أركان أمة ، فقد كان من دهاة الرجال ، ومنعت به سبيل لا يرجى منها إلا عفو الله . أما ابن القاسم - بطل

السند والهند - فلم يكن ممن لوثتهم السياسة بأوضارها ، أو
 لطختهم بسواد معاييبها . وإنما كان بطلاً نقيماً ، ومجاهداً تقيماً ،
 وسيفاً من سيوف الله الماضية ، سلته الله لنشر دينه ، وإعلاء
 كلمته .

إن ابن القاسم لم يكن يبنى للأمويين ، كما بنى الحجاج .
 ولم يكن يعمل لشخص الوليد بن عبد الملك كما كان يعمل
 الحجاج . لقد بنى لله ، وعمل لدين الله ، وتجردت نفسه
 من شهوة المطامع في حكم أو ولاية أو عمالة ، فعقد الله النصر
 على مفرقه وهو شاب بلغ الحلم أو تجاوزه بقليل
 ولقد لقي بطل السند من الجزاء ما لا يتكافأ مع حسن
 الصنيع ، ولقي من الجحود ما لا يقاس به سوء العرفان ، وقتلته
 شهوات النفوس ونزوات الأحقاد ، مصطنعةً في ذلك مكيدة
 افترتها - بتحريض من الحاقدين الناقمين - أميرةٌ سنديّة هي
 بنت ملك السند الذي اخترطته سيوف المسلمين الفاتحين .

أما قصة هذا البطل الشهيد ، وقصة هذا الفاتح الغالب ،
 وقصة هذه الأميرة التي اتخذت أداة لقتل الشاب العفيف
 البريء ، المغامر الجريء ، ففيما يلي من الصفحات

أحاديث الطفولة

جلس الشيخ محمد بن الحكم - جد بطل السند - في داره الرحيبة بالطائف في ليلة من عام ٧٢ للهجرة يقطع الليل تسبيحاً وقرآناً، ويدعو الله أن يجعل تحت امرأة ابنه القاسم غلاماً سرياً . وكان القاسم - أبو بطلنا المستكن في ضمير الغيب - قلقاً على زوجه نائلة حين جاءها المخاض وهي على حال من الصحة قد لا تطيق معها آلام الولاد . . . لقد كان الأب مشفقاً على زوجه ، وكان الجد متشوقاً إلى حفيد له يرى فيه استمرار الحياة في الأحياء والأبناء ، ويحمل اسمه الذي كان أكرم ما تحمل الجزيرة العربية من أسماء .

لقد كان محمد بن الحكم ميمون النقيبة حين سماه أبوه الحكيم باسم محمد ، وحين بُشر محمد بغلام أسماه القاسم ، كما كان للنبي الهاشمي غلام اسمه القاسم . والليلَةَ يتمنى أن يسمى الجنين المضممر محمداً لو وهب الله لهم غلاماً .
وما خيب الله أمنية المتمنى ، فقد هُرعت جارية في دار

الحكم إلى محمد بن الحكم وابنه القاسم تزف إليهما بشرى غلام سعيد .

واتجه محمد بن الحكم إلى الله شاكراً ما حقق ، وجرى القاسم والبشر يتلأأ في عينيه إلى الغرفة التي أهل فيها الوليد ، فطبع على جبينه قبلة ، وهو يهتف : محمد محمد !

وانطلقت البشرى في كل ناحية من الطائف ، وفي كل دار من دور ثقيف بأن القاسم بن محمد بن الحكم وهب له غلام سري ، وأنه يحمل اسم جده محمد ، فاستقبلت الطائف كلها نبأ البشارة بفرح كبير .

ونشأ الرضيع كما ينشأ الرضع من أبناء ثقيف ، ولكنه لم يصحب مولده ولا شهور رضاعه خارقة من الخوارق التي تُنسب عادة إلى كبار الرجال ، وعظماء الأبطال . ألم يقولوا إن الحجاج حين ولد سنة ٤١ هـ لم يقبل ثدى أمه إلا بعد أن لطحوه بدم جدى أسود وطلوا به وجهه ، فأقبل على الثدى بعد امتناع ؟ ثم ألم يقولوا إن القائد الترى تيمورلنك ولد ويدها مخضبتان بالدماء ؟ ومن هنا كان الحجاج وتيمورلنك سفاكين سفاحين للدماء .

ومن حسن الحظ أن التاريخ مر بمولد بطل السند - محمد ابن القاسم - مروراً هيناً رقيقاً متواضعاً ، فلم يخلق أسطورة حول مولده ، ولم يصنع غريبة حول رضاعه . ولكنه جعله طفلاً كسائر الأطفال ، ولم ينصب حول ميلاده تلك الهالة التي تُجلل موالد الأبطال .

ولكن قد يكون من سوء الحظ أن ميلاد بطل السند والهند مر في هدوء وصمت ونكران ، كما مرت ذكراه في هدوء وصمت ونكران . فقد فتح الله به على المسلمين والإسلام شبه القارة الهندية ، كانت حياته القصيرة في هذه الدنيا صراعاً وجهاداً في سبيل الله ، ونشراً لكلمة الله . ولكنه مات ميتة الجحود والنكران ، فعُذِبَ صبراً فيمن عذبهم الخليفة سليمان ابن عبد الملك من قوم الحجاج وأقاربه ، ورضن عليه المؤرخون بالترجمة له ، والإطالة في ذكره ، إلا أخباراً قصاراً ، أطال فيها المؤرخ ابن الأثير - بعض الإطالة ، وقصر فيها المؤرخ الطبري كل التقصير ، وذكرها صاحب فتوح البلدان وهو يذكر أخبار الفتوح .

تعالى الله الذي قسّمها حظوظاً ؛ فكما تختلف حظوظ

الناس من الرزق والمال تختلف من الشهرة والصيت . ولو عدلت
الحظوظ ما قل نصيب محمد بن القاسم من الاشتهار عن نصيب
عمرو بن العاص في فتح مصر ، وخالد بن الوليد في فتح الشام ،
وسعد بن أبي وقاص في فتح فارس ، وطارق بن زياد في فتح
الأندلس .

ولقد كان البطل المسلم قتيبة بن مسلم معاصراً لمحمد بن
القاسم وأبلى في حرب خراسان وتركستان مثل ما أبلى محمد
في السند والهند ، ولكن حظيها من الشهرة مختلفان ، فقتيبة
يعرفه الأكثرون وتوضع فيه الرسائل ، وتكتب عنه الفصول ،
وتذاع فيه الأحاديث . ومحمد بن القاسم لا يعرفه إلا الأقلون ،
ولم تجتمع أخباره المتفرقة القليلة إلى اليوم بين دفتي كتاب .

وفي سنة ٧٥ هـ عين الحجاج والياً على العراق بعد أن صنع
بالحجاز ما صنع ، وادّخر بذلك يداً عند الأمويين ، فكان
له من الدالة عليهم ما أقام له الأمور في العراق على هواه ،
يعين الولاية ويعزهم بكلمة منه مسموعة عند عبد الملك بن مروان .
وهنا نجد القاسم - والد بطل السند - والياً على البصرة في
أوائل ولاية الحجاج على العراق . وهنا ينتقل الطفل محمد

ابن القاسم إلى البصرة حيث أبوه يليها ، فلا يذكر من أرض الطائف وبساتينها إلا ما تختزنه ذاكرة الطفولة الباكرة من صور لا تلبث أن تأتي عليها الأيام .

ومرت الأيام والعراق مسرح للحوادث ، فالخوارج يقاتلون ويُقتلون ، وشبيب بن يزيد الشيباني ممن^٢ في ثوراته ، والمهلب ابن أبي صُفْرة ممن في قتال الأزارقة . وأكبر الظن أن أخبار هذه الأحداث كانت تطرق سمع الطفل الصغير ، كما كانت تطرق سمعه أخبار وقائع العرب مع الروم ، ومناوشاتهم مع الترك بقيادة ملكهم رتبيل .

وبلغ الوليد بضع سنوات حينما بنى الحجاج مدينة واسط بعد أن تنكر له أهل البصرة والكوفة من العراقيين ، وكان قصده من بنائها أن ينزل بها جند الشام الذين كان يعتمد عليهم ويركن في الحروب إليهم .

وامتلأت المدينة الجديدة الناشئة بسكانها الجدد ، وكان فيها قوم الحجاج ، وفيهم الطفل محمد بن القاسم الذي شهد في البصرة ألواناً من الناس غير العرب ، كانوا يقدون إليها للصفق بالأسواق ، أو لمآرب أخرى من مآرب العيش في الحياة .

وأغلب الظن أنه لقي في البصرة - وهو طفل - قوماً من أهل السند الذين كانوا يجوبون الأمصار وأغلب الظن أنه سمع عنهم من عجائب الهند وغرائب السند ما طوح بخياله إلى ذلك العالم البعيد الذي تفصله عنه "بُحْران" و"شُطآن" . . .

وهنا في مدينة واسط كان الطفل قد بلغ الحادية عشرة أو زاد عليها قليلاً ، وبدأت أخبار الفتوح تدخل إلى أذنيه فيجد طرباً لسماعها . إنه يسمع أن يزيد بن المهلب قد فتح قلعة نيزك وكانت من أحسن قلاع باذغيسس وأمنعها ، ويسمع بعد قليل في العام نفسه أن عبد الله بن عبد الملك غزا بلاد الروم وفتح المصيصة وبني حصنها .

ولم يكن هم محمد بن القاسم أن يستمع إلى أخبار الحروب دون أن يشارك فيها ، فقد تطلعت نفسه إلى خوض المعارك وهو دون البلوغ بكثير ، وهنا نجده في فرقة أرسلها الحجاج لمقاتلة عدوه عبد الرحمن بن الأشعث ، كما نجده في جيش الحجاج نفسه الذي خرج به لقتال عبد الرحمن في واقعة دير الجماجم .

ومن عجب أن الميادين التي تلتقى فيها محمد بن القاسم

دروس الكبر والفر لم تكن ميادين مع أعداء المسلمين ، ولكن كان بأس المسلمين بينهم شديداً ، فنال بعضهم من بعض . ولعل ابن القاسم سمع أو وعى من بسالة الخوارج واسماتهم في سبيل الفكرة ما هوّن عليه أمر الحياة في نظر نفسه ، ولعل قُربه القريب من أحداث ابن الفجاءة وشبيب وعمران بن حطان قد أصغر في عينيه عظيما الأمور . فهو يخوض المعارك مع الحائضين ، ويجيد الطعن والضرب ، ويعرف مواطن الإحجام والإقدام ، فكل خطوة عنده بمقدار ، وكل كربة عنده بميزان . وأغلب الظن أن محمد بن القاسم لم يكن راضياً عن هذه الحروب التي تلقى فيها أول دروس الجندية ، فلقد ضاق هو كما ضاق كثيرون غيره بهذه التارات والثورات التي لم تضع أوزارها بين العرب ، وماذا ينفع المسلمين أن يقتل ابن الأشعث أو محمد بن موسى بن طلحة ، أو عبد ربه الكبير ، أو بجير ابن ورقاء وغيرهم من عشرات الرجال الذين يزدحم بهم تاريخ حركم عبد الملك بن مروان ؟

لقد تذكر محمد بن القاسم فتوح المسلمين في أيام عمر ، بل قفزت إلى ذاكرته تلك الأنباء الضئيلة التي ترامت إلى طفولته

الباكرة عن فتح حسان بن النعمان لأفريقية ، وما صنع بالكاهنة التي كانت تملك البربر ، وكانت عظيمة المحلّ عندهم ، والتي ألّبت البربر على المسلمين ، فذاقت وبال أمرها على يد حسان ابن النعمان .

وتذكّر تلك الأحاديث عن الهند التي كان يحملها التجار وجوّاب الآفاق عن تلك الأرض الساحرة التي كان ينصبّ الذهب فيها على إلههم بوذا وسدنته وحراس بيوته ، وأوثانه المنتشرة في كل مكان .

وعز عليه أن يرى في العراق قوماً يقتتلون فيما بينهم ، على حين أن هناك - خارجَ جدول المملكة الإسلامية - رقاعاً فسيحة من الأرض ، تخيم عليها ضلالات الجاهلية التي كانت سائدة في شبه الجزيرة العربية ، ويعبد أهلها من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم ، ويسودها ظلام كثيف ضرب عليها قروراً وأجيالاً ، فحجب عنها منافذ الضياء .

فإلامَ تظن هذه البقاع الفساح بيدياً لا نجاة فيها لسائر ، ولا دليل فيها لحائر ؟ ولماذا لا يتجه المسلمون إلى هذه الأصقاع ؟

عهد المسامحين بالسند

كان الفتي محمد بن القاسم يسمع كثيراً عن السند والهند منذ طفولته الباكرة ، حتى راوده خيالهما وهو حديث عهد بالولادة . ولم تكن السند في ذلك الحين غريبة كل الغرابة على المسلمين ، فقد كان لهم فيها سابقة من غزو في عهد الخليفة عثمان بن عفان ، وفي إمارة عبد الله بن عامر على البصرة . نعم ! فبعد العام الثلاثين من الهجرة بقليل ، كان عبد الله ابن عامر يرسل البعوث من ثغر البصرة إلى ما جاوره أو بعد عنه قليلا من ثغور بحر فارس والمحيط الهندي ، وكان ثغر السند مما وقع عليه نظر ابن عامر ليزيد به شيئاً في رقعة المملكة الإسلامية .

وعين ابن عامر رجلا من رجاله ، هو عبد الله بن سوار عاملا له على ثغر السند ، وانصرف إلى حروبه مع فلول الفرس حتى قتل يزدجرد آخر ملوكهم في عهد إمارته على البصرة سنة ٣١ هـ .

وتختفي أخبار السند من مسرح التاريخ الإسلامي بعد غزو ابن عامر لها وولاية ابن سوار عليها في عهد عثمان ، وتظل عشرة أعوام في موادة مع المسلمين ، إلى أن يجيء عام ٥٤٤ هـ ، ويعين الحكم بن عمرو الغفاري والياً على خراسان ، فيرسل من لدنه محارباً جلدأ على القتال ليغزو ثغر السند من جديد ، هذا المحارب هو المهلب بن أبي صفرة الذي اشتهر بعد ذلك بقتال الحوارج وأبلى في محاربتهم أصبر بلاء .

وتختفي السند من مسرح الحوادث أعواماً آخر ، يكتب فيها خلفاء بني أمية بإرسال عامل من قبلهم عليها يجمع خراجها القليل الضئيل ، وقد يكون هذا العامل وضع الطمع من منافسين أشداء له ، يقبلونه على أمره ويريحون الثغر من ولايته ، كما حدث في أول عهد الحجاج بولاية العراق .

في سنة ٧٥ هـ - وهي السنة التي عين فيها الخليفة عبد الملك بن مروان الحجاج والياً على العراق - اتخذ عبد الملك عاملاً له على ثغر السند هو سعيد بن أسلم بن زرعة ، ولم يكن سعيد هذا ممن تهاب سطوته ، أو تخشى صولته ، فقد خرج عليه أخوان ثائران طامحان من ولد الحارث ، وأقلقا

عليه مضجعه بالليل ، وسدّاً عليه سبيل النهار . فقتلاه وغلبا على البلاد . فبعث الحجاجُ إلى ذلك الثغر التائر القلق برجل من تميم يتحرق قلبه ، ويتلظى حباً للغزو والمجاهدة في سبيل الله ، هو مجاعة بن سُعر التميمي ، فغلب على الثغر ، وأقر الأمور فيه على حال تسمح له بمواصلة الغزو على نطاق ضيق ، فغزا وفتح أَمَاكن من إقليم قندابيل ببلاد السند . ولكن الموت كان راصداً له فلم يمهل حتى يستوفى العامُ أجله ، ومات بمكران .

كانت الجالية العربية الإسلامية الناشئة في بلاد السند تتسع قليلاً قليلاً وتقوم بينها من المصالح ما يقتضى سهر العمال عليها وقيامهم بأهـ ورها . وكان هناك جزيرة صغيرة اسمها جزيرة الياقوت يحكمها ملك من ملوك السند ، وكان في الجزيرة نسوةٌ وُلدن فيها مسلمات ونشأن على الإسلام من آباء مسلمين ، ومات هؤلاء الآباء وظل النسوة بلا حامٍ لهن ولا راعٍ ، فأزاد ملكُ جزيرة الياقوت أن يتقرب بهن إلى الحجاج فيهديهن إليه ، وأرسلهن في سفينة أخذت تشق طريقها إلى البصرة ، وفيما هي سائرة على وجهها إلى قصدها ، إذا بجماعة من قراصنة الدَّيْبِل يخرجون في بوارج لهم خفيفة ، فيأخذون السفينة بما فيها

من المتاع ومن فيها من النساء . وهنا يرتفع صوت واحدة منهن
 مستغيثة قائلة: يا حجاج! كما ارتفع بعد ذلك في العصر العباسي
 صوت عربية مستغيثة بالخليفة العباسي قائلة : وامعتصماه ...

ولم تَضِيع أمواج البحر ولا هديره ولا زججرة رياحه صوتَ
 ذلك النداء الخارج من قلب عربية كسيرة ، في رفقة أخوات
 لها كسيرات ، وإذا كان النسيم في رفته ينم على العشاق فيذيع
 أخبارهم ، أفلا تحمل الرياح في قوتها صوت الضعيفات
 المهيضات إلى من يخفُّ للنجدة ، ويسرع للمعونة ؟ لقد بلغ
 ذلك الصوت المتكسر المضطرب مسامع الحجاج ، فيقول
 المؤرخون إنه قال : لبيك ! لأن العربي سريع بطبعه إلى النداء ،
 فما بالكم إذا كان لنجدة النساء ؟

وسلك الحجاج أول الأمر طريقه الدبلوماسي ، فقد كان
 داهية في السياسة والدبلوماسية ، فأرسل إلى زاهر ملك السند
 يسأله تخلية النسوة اللاتي أخذهن قراصنة الديبل إحدى بلاده.
 فردَّ زاهر ردًّا لعل الله قصد به أن تصير الأمور في السند
 إلى المصير الذي نحن مقبلون على وصفه ، من ضياع مملكة
 واسعة ، وفتح بلاد شاسعة ، والتمكين للعرب والإسلام من بلاد

رحيبة الأرجاء ، وإعلاء كلمة الله في بلاد كانت للأصنام
البدوية فيها دولات وسلطان .

لقد رد زاهر ملك السند بأن الذين خطفوا النسوة العرب
لصوص " لا يقدر عليهم ، ولا ينبسط سلطانه على سلطانهم ...
وبذلك مهد للحجاج الأعداء في غزو بلاده التي لا يستطيع
فيها - وهو ملك - حماية ضعيف ، ولا إغاثة لهيف .

فأرسل الحجاج جماعة من المقاتلة على رأسهم ابن نهران إلى
مدينة الديبل مهد القراصنة ، ووكر لصوص البحر الفاتكين ،
فقتل القائد ابن نهران ، وانكسرت روح جماعته لمقتله ، فأرسل
الحجاج يستقدم جندياً اسمه بديل من عمان ، ويأمره أن يسير
إلى الديبل ، يقاتل أهلها من لصوص البحار وقطاع الطرق ،
فلقيهم بديل في شجاعة فائقة ، واستماته بالغة ، ولكن الحظ
قد أخلاه من طريق الفتح للسند ، كما أخلى القائد جماعة من
قبله ، لينسح الطريق للقائد الموعود ، والفتاح المنشود : محمد
ابن القاسم .

ومن عجب أن يموت بديل بأسباب شجاعته ، وأن تكون
منيته في فروسيته ، فقد نفر به فرسه نفاراً لم يستطع معه له كبحاً ؛

ولا له ردًّا ، فأحاط به العدو من مقاتلة الديبل وأهل السند
فقتلوه . . .

وهنا كانت الأسباب كلها تلح على الحجاج في إرسال
جيش كبير إلى بلاد السند ، يؤدب به العصاة ، ويفتح به
الأرض ، ويحقق نصر الله الذي وعد به من ينصره .
فمن يكون ذلك القائد لجيش السند الذي تخيئه لها
الأقدار ؟

على الأهبة

دخل محمد بن القاسم على ابن عمه الحجاج مغاضباً حين ترامت إلى أسماع المسلمين هزيمة البعوث الصغيرة التي أرسلت في ولاية الحجاج إلى ثغر السند . وكان قلب الشاب الشجاع يتميز من الغيظ على المصير الذي لقيه ابن نهبان ، وبديل ، وهما يريدان الثأر من قراصنة الديبل . وهل عتقم نساء العرب عن أن يلدن أشباه القواد من أمثال خالد بن الوليد والزبير بن العوام ، وأبي عبيدة عامر بن الجراح ، وسعد بن أبي وقاص ؟ وانفجر الشاب أمام هيبة ابن عمه الحجاج ، لا يخاف ذلك الداهية الذي أخاف قلوب أهل العراق . وقد كان لصلة ابن القاسم القريبة بالحجاج ، ومكان الدالة عليه منه ، ما جعله يُصرح بالمقال ، ويندفع في الكلام ، ويسرف في الملام ، لا خائفاً ولا وجلاً ، وهو يقول :

— مولاي وابن عمي ! لعل مصرع الشهيدين في غزاة السند قد هز أعطاف قلبك ، كما اهترت له أركان الدولة ،

فماذا أنت فاعل ؟ لقد اختطف قراصنة السند من مدينة الديبل بعض النسوة المهديات إليك ، وردّ عليك ملك السند ردّاً لا يحمل العجز قدر ما يحمل الاستخفاف بالمسلمين ، ونية الغدر بهم . وغداً يجترئ عليك أهل السند ، وينتقض على الدولة ملوكهم فيستردون الأرض التي كسبناها من عهد الخليفة عثمان بن عفان . ولقد أجبت نداء المستغيثة بك ، ولكن جندك لم يحقق نصراً ، ولم ينصف ظلاماً ، ولم يسترد الأخيذات الضعيفات . ولقد جئتك من فارس لعلّي ألقى الله في أرض السند فأظفر هنالك بأجر الشهيد . فهلا أرسلتني إلى ثغر السند ؟

— نعم الروح روحك يا بنى ، ونعم الجهاد جهادك !
وإني مسيرك في جيش على رأسه أبو الأسود جهم .

— والله يا أمير العراق ما يضيرني أن أكون جندياً صغيراً لقائد من قوادك كأبي الأسود ، ففيه بلاءٌ ، وفقّ طاعة .
وما أنا ممن يخالف لعاجل مصلحته ، فأبق أبا الأسود بفارس فإن الحاجة إليه ماسة ؛ والخبرة ، فيه مرجوة ! وقد عرف الطرق وسلوكها ، وبلا المواقع واختبرها ؛ وأرسلني أنا إلى السند آتيك

بالأخاند اللأئى اختطفهن اللصوص ، وآخذ لك وللعرب بئار
 اثنين من خيرة قواد المسلمين ، وبعدها يفعل الله ما يريد ...
 - ولكنك يا بنى فى مثل سنك الباكرة لا يجوز أن تنعقد
 لك قيادة على جيش ، فإنك فى عامك السابع عشر ، وفى
 المسلمين غيرك من تقلمه سنه ، ويؤهله عمره ليكون على رأس
 جيش الخليفة إلى السند .

- ومتى كان السن يا أمير العراق حائلا بين المرء وبين
 ما يستحقه من عمل ؟ وليس ذنبى أن تأخر بى الميلاد إلى
 ما بعد العام السبعين من الهجرة ، وتقدم بغيرى قبل ذلك
 بعشرات السنين ؟ فاختبر بلأئى يا ابن العم هذه المرة ، وأرجو
 أن يحمذك الاختبار !! فابتسم الحجاج ابتسامة تحمل من
 المعانى ما لا يخفى على الشاب المقدم وقال :

- وكيف يصح يا بنى أن أجعل مصالح المسلمين موضع
 الاختبار لديك ، ما دام فى ذلك مندوحة عنك باختبار غيرك
 من شيوخ الحرب ودهاتها ، ممن لهم سابقة قدم فى الميادين ؟
 وفيم تتعجل يا بنى القيادة وهى آتية لك مع الأيام ؟
 - يا أمير العراق ! لقد حزننى مصرعُ شهيدى فى بلاد

السند لم يبرح خيال الدم المتقطر منهما يورق ليلى ، ويُقلق
نهارى ، فهلا جعلتني لهما ثالث الشهداء ؟

— يا بنى ! أخشى أن تقول الألسنة إن ابن يوسف
الثقى بحبى أهله ويصانعهم ، ويؤثرهم بالمناصب على غيرهم
من أبناء المسلمين .

— ولكننى يا أمير العراق لا أطلب منصباً ، ولا أطلبك
برزق ، وإنما أطلب منك أن تعيننى على موتة فى سبيل الله ،
فأعنى على الموت يهب لك الله الحياة !

— تأبون يا بنى ثقيف إلا أن تسبقوا إلى الفضل ولو على
أطراف الرماح ! فخذ يا بنى سيفك وامض لوجهك على بركة
الله ، وكن — من الآن — عاملاً لبني أمية على ثغر السند .
وسياتيك كتاب الخليفة الوليد بن عبد الملك بإقرار العهد لك .

* * *

ومضى محمد بن القاسم والفرح يملأ مسالك نفسه ، وأخذ
يعد للغزو عدته ، ولم يتركه الحجاج يستقل وحده بتدبير أمر
الجيش الجديد ، ولكنه أخذ يجهزه بكل صغيرة وكبيرة مما يحتاج
إليه فى ساحة القتال ، بعيداً عن قواعد الإمداد ، ومراكز التموين ...

ولم يترك الحجاج صغيرة إلا أمدَّ بها ذلك الجيش الذي
 يعلق عليه المسلمون أكبر الآمال . حتى الخيوط والمسائلُ والإبر
 مما يحتاج إليه في رفو الثياب ، ورتق العياب ، كانت مما جَهِز
 به الثقفى جيش السند المتأهب للقتال .

وأعجب من هذا أن ينظن الحجاج إلى حب العرب للخلَّ
 في طعامهم ومعيشتهم ، يطبخون به ويصطبغون ، والخل في
 بلاد السند ضيق شحيح ، فكيف سبيل جيشه إليه وهو مما
 يشغل حمله في الدنان على ظهور المطايا ومتون الدواب ؟ لقد
 فكر الحجاج في حيلة لطيفة يزود بها جيش السند بحاجته من
 الخل في غير مشقة من الأحمال الثقال... لقد أمر بالقطن المحلوج
 فنقع في الخل ، ثم جفف في الظل - حتى لا تبخره الشمس -
 ووضع خفيف المحمل مع ما وضع من الذخيرة وميرة القتال .
 وسير الحجاج مع البطل الشاب سبعة آلاف مقاتل تتحرق

نفوسهم إلى الشهادة في سبيل الله ، وقد خرجوا من ديارهم على
 نية البيعة لله ولدينه ، فإن قُتلوا فلهم أجر المجاهدين ، وجزاء
 الشهداء الصالحين ، وإن عاشوا فإن حياتهم لله موهوبة ،
 لا يضيرهم أن يسبق إليها الدعاء ، أو يتأخر بها النداء ...

صنم محطم

اندفع محمد بن القاسم ووراءه جنوده كالسهم يمشى إلى رميته في مضاء وتصميم وقصد للهدف لا يجيد عنه ولا يميل . وخرجوا تسيل بأعناق مطاياهم البطائح ، فسار محمد إلى مكران فأقام بها بضعة من الأيام ، ثم أتى مدينة قنزبور ففتحها ، ولم يجد في فتحها كبير عناء ، ثم اتجه إلى مدينة أرمائيل ، فلقى فيها مقاومة لم تقوَ على حماسة جيشه وصبرهم في القتال فسلمت المدينة .

وكان تعريج ابن القاسم على هاتين المدينتين في طريقه إلى مدينة الديبل هو من باب التمهيد للغزوة الكبرى ، ففضى بعد فتح إرمائيل على غايته إلى المدينة التي كان منها متلصصة البحار وقرصانه - الديبل - فنزل بها وكان اليوم يوم جمعة ، وكأنما كان هو والسفن الإسلامية التي تحمل السلاح والأداة وبقية الرجال على ميعاد ، فوافته قطع الأسطول الأموي في اليوم نفسه . والتقى الجمعان من بعوث البر وبعثة البحر في مدينة

الديبل ، وخذق القائد الشاب ، وأنزل الناس منازلهم ، على عادة العرب حين يقاتلون .

ونصب ابن القاسم منجنيقاً ضخماً أحضره معه في جملة عتاده ، يقال له العروس . وبلغ من ضخامته أن خمسمائة رجل كانوا يد يرونه في ساعة الرمي . واتخذ القائد الشاب موضع العروس أمام صنم هائل الحجم ضخم البناء ، تهوى إليه أفئدة العباد من أهل الهند والسند ، يعظمونه ، ويقربون إليه القرابين ، وينحرون له الذبائح على نحو ما كان يفعل العرب في جاهليتهم قبل أن يمن الله عليهم بالإسلام ، والخروج إلى النور من الظلمات .

وكان صنم الديبل — أو بُدُّها كما أسماه العرب الفاتحون — ترتفع فوق هيكله الضخم سارية عظيمة ، عليها راية حمراء واسعة الأطراف ، حتى لقد بلغ من سعة رقعتها أن الريح إذا هبت عليها كانت تدور فتطوف بالمدينة المقدسة في دورانها فتهفوا إليها أفئدة الألوف المؤلفة من أهل المدينة . وقد ركزت هذه السارية العالية على منارة عالية فوق بناء البد العظيم .

وكان مما وضعه ابن القاسم من خطة للغزو أن يقصد هذا الصنم الهائل الضارب في عنان السماء كأنه جبل يطل على

الأرض من شاهق أو يزحم النجوم في مدارها ، فيصيب منه
ثلمة ، فتنثلم معه حينئذ قلوب المقاتلين من أهل السند ، وتنكسر
أرواحهم ، وتذهب أنفسهم حسرات على المعبود المقدس الذى
يعظمونه ويجلونه ، وينزلونه منازل التقديس .

ولقد عرف ابن القاسم ذلك فيما عرف ، مما كان يتلقفه
من أخبار السند وهو فى البصرة طفلاً طرى الإهاب . فأحكم الخطة
لذلك ، وجلب معه المنجنيق الهائل : العروس ، حتى لا تقف
فى سبيله مناعة حصن ، ولا متانة جدار ، ولا ارتفاع أسوار ...
وحاصر البطل الشاب ما حول الصنم العظيم من جميع أطرافه ،
وأطال الحصار حتى ضاقت نفوس أهل البد عليهم . واستياسوا
من الخلاص . والتقت أذرع الرماة فى مراعى العروس كأنها
ذراع رجل واحد ، ورموا سارية البد بحجر ضخيم ، فانكسرت
السارية وانحبت قامتها المرتفعة أمام منجنيق هائل . فتطير
المقاتلون من السند بذلك وتشاءموا ، وخشوا أن يكون ذلك نذيراً
بدوران الدائرة عليهم . فخرجوا مندفعين من داخل المعبد ومن
أبهاء البد ومضايقه ، وحملوا على المسلمين حملة المستأيس ،
ووثبوا وثبة المضيق عليه حين يشتد به الأمر ، وتندس عليه سبل

النجاة ، فيضرب على غير هدى لعله يلتمس مخرجاً من ضيق ،
أو منفذاً من محبس . . . فهجم عليهم ابن القاسم برجاله هجوم
الواثق من النصر ، وردهم إلى داخل الصنم محصورين لا
يستطيعون خروجاً إلى الموت الذى ينتظرهم خارج البدن ، ولا
يقدرّون على بقاء داخله ما دامت الذخيرة محدودة ، والزاد
بمقدار .

وكانت جدران البدن من الضخامة وعلو السمات بحيث
لا يصل إليها متسلق إلا إذا صعد إليها على سلم منصوبة ،
فأمر ابن القاسم بالسلالم فنصبته . ولكن من يصعد إليها
ليلقى ضربة من عدو راصد داخل الصنم ، أو رمية من خاتل
وراء الأسوار ؟

وهنا يستحضر المسلمون ما حدث في واقعة حصن بابليون
بالفسطاط ، أيام الفتح العربى لمصر على يد عمرو بن العاص .
ألم يستعص ذلك الحصن العتيق الرصين على العرب الفاتحين ،
فإذا بالزبير ابن العوام وقد أتى بسلم فصعد عليه ، حتى أوفى
على الحصن من شاهق ، وهو مجرد سيفه تحذر المباغت ،
فكبر وكبر معه المسلمون تكبيرة رجل واحد ، ففتح الحصن

عنوة ، وانقادت مقالده للعرب بعد طول شماس ؟

نعم ! لقد كان في مُقاتلة المسلمين بالسند من يذكر هذا الموقف لابن العوام في فتح مصر ، فلم لا يكون هنا ابن عوام آخر ، ما دام الإسلام يصب رجاله على غرار كريم ؟ لقد نهض رجل من قبيلة مُراد من أهل الكوفة ، وفعل كما فعل ابن العوام في أرض الأهرام !

لقد كان هذا الفتي المرادى أول من صعد على السلم وتبعه الرجال ، ففتح حصن الصنم عنوة واستحرق القتال ثلاثة أيام ، لم يذق المتحاربون فيها طعماً للشرب والطعام والمنام .

وما أعجب التاريخ أحياناً حين ينسى أسماء الرجال عن غير قصد ولا نية في إغفال ! فإنه ضمن على هذا الفتي المرادى السابق إلى تسور الحصن بأن يذكر اسمه ، ولكنه اكتفى من ذلك برده إلى قبيلته من بني مراد . . . وما يبالي المجاهد حين يجاهد فيقتل في سبيل الله أو يُقتل ، أن يُذكر اسمه أو يهمل ، أو يسجل اسمه أو يُغفل ، ما دام أدى لله والضمير والواجب ما عليه من حقوق واجبة الأداء .

لقد سقطت مدينة الديبل وسقط معها صنماً إلى حيث

لا رجعة لأوثان ولا عبادة لأصنام . وكان ذلك في سنة ٨٩ من الهجرة . واستبد الخوف بوالى مدينة الديبل وعاملها السندی من قبل الملك ذاهر ، فأسلم ساقیه ممعناً في الحرب ، ملتمساً النجاة بنفسه . وأنزل ابن القاسم أربعة آلاف من رجاله في المدينة التي كانت بالأمس القريب واترة للمسلمين بخطف جماعة من نسائهم وهن في الطريق إلى أمير العراق . . .

واختط محمد بن القاسم في المدينة المغلوبة على أمرها خططاً وأحياء للمسلمين ، لينزلها أربعة الآلاف من جنده النازلين . وأقام بها مسجداً يرتفع من مثدنته التكبير ، باسم الله العلى الكبير ، بعد أن سكنت أصوات الطواغيت

على ظهور الافيال

ترك بطل السند حاميته القوية في مدينة الديبل ، بعد أن فتحها بالسيف عنوة ، وسار عنها إلى مدينة البيرون ، وهي المدينة التي ينسب إليها الفيلسوف المؤرخ المسلم أبو الريحان البيروني من علماء القرن الخامس الهجري .

ولم يدر ابن القاسم ، وهو في طريقه إلى البيرون — أن أهلها كتبوا إلى الحجاج في العراق مصالحين ، فإذا ببطلنا يقابل أهل هذه المدينة المسالمة وهم يخرجون إليه بالميرة ، ويمدونه بالمعونة ، وفاءً بعهد مصالحتهم ، وإذا بهم يفتحون له المدينة على ذراعها ، فيدخلها ابن القاسم بلا قتال ولا نزال . فيسير عنها بطل السند ، وهو لا يمر بمدينة إلا فتحها .

وآثر بعض أهل السند العافية على قتال لا يخرجون منه إلا بكثرة المقتلة فيهم ، ووطأة الهزيمة عليهم ، ففضلوا المصالحة على الوقوف في معركة خاسرة . ومن هؤلاء أهل المدينة سربيدس ، فكانوا أعقل من أن يبادلوا بحرب لا نهاية لها إلا الخسارة عليهم ،

والنكال بهم ، فصالحوا البطل الشاب ، ووظف على مدينتهم
الخراج . أما أهل مدينة سهبان فقد ركبوا رءوسهم ، فكان
جزاؤهم أن فتحت بلدتهم عنوة ، بعد أن أعمل المسلمون فيهم
سيرفهم الظمأى إلى رى الدماء . . .

وقد أثمر الدرس القريب الذى ألقاه ابن القاسم على أهل
سهبان ، فخرج منه أهل سدوستان بالعافية ، بعد أن طلبوا
الأمان والذم ، فأمنهم بطل السند وأمنهم من خرف ، ووظف
عليهم خراجاً قبلوا أن يدفعوه عن يد وهم صاغرون .

كان عمال زاهر ملك السند وولاته على الأقاليم يسقطون
رجلاً إثر رجل ، ولم يستطيعوا مغالبة هذا الشاب الجريء
الذى وفد إلى بلادهم وحشو ثيابه همة لا تصدها عقبات ولا
أهوال . أما الملك زاهر نفسه فكأنما كان فى غفلة عما أصاب
ملكه الذى بدأت تنهار قواعده ، لقد كان منصرفاً إلى أمواله
وجواربه فيما وراء نهر مهران ، وكان ذلك الجيش العربى النازل
على أرضه لا يستحق منه أدنى التفات ، ولا أقل اهتمام ، وكان
أنباء سقوط الديبل ، ومصالحة بيرون ، وفتح سهبان ، وتسليم
سدوستان وإيغال العرب الفاتحين فى البلاد لم تصل إلى مسمعه

المشغول بأنغام القيان . . . أو كأنه سمع وصك النبا بعد النبا
أذنه ، ولكنه مستخف ، بالعرب مستصغر لأمرهم ، معتزم
لقائهم في موقعة تدور فيها الدائرة عليهم في حسابانه !

وعبر ابن القاسم نهر مهران فإذا به يلتقي الملك ذاهر وهو
على فيلٍ مُطهم كأحسن ما تُطهم الجياد ، وعليه عدة كأرفى
ما تكون عدة الخيل ، وحوله الفيئة بركبانها ، تحيط به إحاطة
السوار بالمعصم ، وتقيم من حوله الأسداد ، حتى لا يناله عدو ،
ولا يظفر به محارب ، ولا يستهدف منه مقتل لنبل نابل ، أو
طعن طاعن ، فهم والفيئة الضخامُ بطانة للملك ، وسداد له
من كل ثغر ينفتح عليه في معمعان القتال .

ورأت الخيل العربية هذه الفيئة الضخمة فنبضت بها
كرائم عروقتها . . . ورأت الفيئة المهولة المفزعة هذه الخيل
كأنها جن تحمل على صهواتها بشراً كالجن ، فعجن جنونها ،
وسمع من جماعتها صبي^(١) غطى على تصهال الخيل ، حتى
استحالت المعركة إلى قطعة ترعد بالهزيم . . .
واقبتل الجمعان قتالاً لم يُسمع بمثله كما يقول المؤرخون .

(١) الصبي : صوت الفيئة .

ولم تثبت الفيلةُ ولا فيالوها في مقام تزل فيه مواطئُ الأقدام ،
وتتخلخل فيه السيقان ، وتنخلع له قلوب الشجعان . ورأى
الملك المغلوب ذاهر أن ظهر الأرض أثبت من الفيال ظهراً ،
فترجل والدروع تدفع عنه من الضرب ما تقدر على دفعه ،
إلى أن سقط إعياءً فقتل بعد أن مالت شمس النهار إلى غروب .
وكان مقتل الملك ذاهر بيد فارس عربي غضّ الإهاب ،
شديد البأس ، شجاع النفس ، خاض الصفوف غير مُبال
بما هو مُقبل عليه ، وفرج الجموع غير عابئ بما قد يتعرض
له . فلما آجندله بسيفه قال مفاخرأ :

الحيل تشهد يوم ذاهر والقنا ومحمد بن القاسم بن محمد
أننى فرجت الجمع غير مُعرد^(١) حتى علوتُ عظيمهم بمهند
فركته تحت العجاج مُجندلا متعضر الخدين غير موسد...

وهنا لم يغفل التاريخ اسم قاتل الملك ذاهر ، كما أغفل اسم
الفتى الجريء الذي كان أول صاعد على السلم ليتسور حائط
البدئ . فقد روت أحد المؤرخين أن اسمه القاسم بن ثعلبة
ابن عبد الله الطائي .

(١) عرد الرجل الطريق إذا انحرف عنه .

وكان مقتل زاهر ملك السند إيذاناً بغلبة العرب الفاتحين على بلاد السند كلها ، وإعلاناً بأن مقاومة أهل البلاد غير مجدية ، بعد أن قتل ملكهم ، وتفرقت جموعهم

ومضى بطل السند الشاب ممعناً في البلاد ، لا يصدده حصن ، ولا تقف في طريقه عقبة ، ولا ترهبه فلول جيش ندول ، فاتجه إلى مدينة راور وكان الملك زاهر قد اتخذها مرتعاً لإحدى نساته . ففتحها ابن القاسم عنوة ، بعد أن رفضت المصالحة . وأخذ الأمان ، وخافت امرأة زاهر أن تقع أسيرة في يد العرب فأحرقت نفسها وجوارياها وجميع ما تملكه من طائل المتاع ، وغزير الأموال ، ونفائس الألفاظ .

على أن امرأة زاهر لا تهمنا في هذا السياق إلا على قدر ما يسمح به الخبر المروي ، فهي وقصة انتحارها بإحراق نفسها وجوارياها لا تحمل للعرب مغزراً لغامز ، ولا مطعناً لاطاعن . فقد كان المسلمون الفاتحون أشد الغزاة حفاظاً على الحرمات ، وصيانة للأعراض ، وتصوناً مع النساء ، حتى كانت آدابهم في القتال ، وأخلاقهم في الحروب ، مما يصح أن يكون دستور المقاتلين على العصور . ما دام الله قد كتب على الناس

أن لا تنزع نوازع القتال من نفوسهم
 فلا حاجة لقائل أن يقول معتذراً من فعلة امرأة زاهر بأن
 ذلك الذى صنعته هو من عادات أهل الهند فى قديم الزمان .
 أما الذى يهمنى فى قصة بطل الهند والهند فهو قصة «سيتا»
 ابنة الملك زاهر ، فقد أحبها ابن القاسم ، ولكنه ما تعلق منها
 بريية ، ولا هم معها بما يهيم به المحزون حين يُغشى الحب على
 أسماعهم وأبصارهم ولكنه صان كرامتها وعفتها كأكرم
 ما تصان بنات الملوك . إلا أن مصرع أبيها على يد رجل من
 رجال ابن القاسم قد أوغر صدرها ، وملاً قلبها ، فخامرت
 مع الفلول المتناثرة من أمراء البلاد ، وشاركت فى مريب الخطط
 بما لم يدع مجالاً لابن القاسم فى تبرئتها من الخيانة لخطط الفتح ،
 فأرسلها أسيرة إلى بلاط الأمويين حيث كان لها شأن مع بطل
 الهند والهند سنعرفه عما قليل

ثغر بيت الذهب

لم تقف يبطل السند غاية بعد مقتل الملك ذاهر ، وكان على يقين أن بلاد السند لن يقف معقل فيها ، ولا حصن بها ، ولا مدينة من مدائنها في طريق فتوحه . وماذا يبقى لجماعة — مهما كان أمرها — بعد أن كانت جموعها تنهزم في كل لقاء أمام جيش غالب بإيمانه ، قوى بيقينه ، خرج في الله غازياً ، ولدين الله داعياً ؟

مضى ابن القاسم في طريقه إلى مدينة برهنا باذ العتيقة ، وكان لها في السند مكانة تاريخية مرموقة ، وقد جمع فيها المهزمون من أهل السند ما بقي من فلولهم ، لياقوا بها البطل الذي تعود لقاء الجيوش للقاء الفلول . . .

وقاتلهم ابن القاسم قتالاً أزالهم عن مواقعهم ، وأفنى كثيراً منهم ، وخرّب كثيراً من ديارهم .

وغادر البطلُ المدينة العتيقة وهي أطلال متخرّبة ، ورسوم متداعية ، ومضى على وجهه من الغزو يُريد مدينة الرور ، وفي

طريقه إليها لقي أهل مدينة ساوندى ، وقد صفرت أيديهم من السلاح والرماح وعدة القتال ، ورفعوها مطالبين بالأمان بعد الذى بلغهم من أنباء المدن السندية المتخربة بلداً عقب بلد ... فأعظاهم ابن القاسم الأمان ، واشترط عليهم ضيافة المسلمين ، فنزلوا على الشرط راضين ، ثم دخلوا كلهم فى الإسلام بعد ذلك بقليل .

وأصبحت أرض السند بعد ذلك تدنو للبطل ابن القاسم ويُطوى له بعيدها . . . وإذا هو عقب ذلك بمدينة بسمد ، فلم يرفع أهلها السيوف إلا ليطووها فى الأغماد ، طلباً للصالح الذى لم يبخل به عليهم .

وهنا كانت مدينة الرور على مرمى النبال من جيوش المسلمين ، وهى مشرفة على جبل من جبال السند ، والطريق إليها وعرة ، والمرقى إليها عسير ، فظل بطل السند ضارباً عليها الحصار شهوراً ، إلى أن صالحه أهلها فقبل منهم الزمخ ، ومضى إلى مدينة السكة ففتحها ، ولم ينته به المطاف عندها ، وإنما جاء إلى نهر بياس فاجتازه فى طريقه إلى الملتان .

ولقد كانت الملتان أحد الأهداف العظام التى يرمى إليها

ابن القاسم من غارته على السند ، فهي مدينة كبيرة عتيقة ،
ولها من التمدد عند أهل السند ما يفوق مدينة الديبل ، ففيها
البدء العظيم أو الصنم الكبير ، الذي تُهدى إليه الأموال ،
ويأتى الناس إليه من كل فج عميق ، وتهوى إليه الأفئدة ،
يحلّقون رءوسهم ولحاهم عنده ، ويتقربون بالقرابين إليه ،
ويتزاحمون بالمناكب كأنهم في ساعة الحشر للعبادة فيه . وتزدحم
ساحاته وأبهاؤه وحماد بالوفود التي لا ينقطع سيلها ، والحجيج
الذي لا يسكت تدفقه . وقد بلغ من ضخامته ورحابته أن
عدد سدنته والقائمين على خدمته بلغ ستة آلاف كاهن ،
يقيمون فيه الليل والنهار . ويستقبلون فيه القادم ، ويودعون
المفارق ، ويقيمون فيه الشعائر والمناسك ، فهو مدينة في مدينة ،
وهو بلد في بلد . . .

جاء ابن القاسم إلى مدينة الملتان بما تحمله من حاضرها
وغابرها ، فقاتله أهلها فحاصروهم رشده عليهم الحصار ، وظن
أنه لن يطول بهم الأمد ، فستنفد ميرتهم من الطعام المخزون ،
والماء المحفوظ ، وهناك سيلجئهم الجوع والعطش إلى التسليم .
ولكن الحصار طال إلى أجل تأكد معه المسلمون أن الماء ليس

مخزوناً عندهم ، وإلا لنفد من عهد بعيد ، ولكنه يأتيهم داخل الحصن من قطع من الماء يدخل المدينة من مكان نبوء . . . وهنا تظهر الخيانة من رجل من أهل البلاد ، فيدل المسلمين على قطع الماء فيمنعونه ، فيظماً المحاصرون ، حتى ليبلغ الظمأ بهم حد اللهاث ، فلا يجدون مخرجاً لهم مما هم فيه غير أن يسلموا ويلقوا بأيديهم ، وينزلوا على حكم البطل الجريء الذي قتل المقاتلة ، وسبي الذرية ، وأسر سدنة البلد العظيم ، وهم ستة آلاف كما سلف القول .

ودخل الفاتحون غُرف المعبد في الصنم الكبير ، فإذا هم يصيبون هناك ذهباً كثيراً مما حمله زوار ذلك البدّ العتيق ، فتكسب على مر السنين . . . وهنا أمر بطل السند أن يُجمع هذا الذهب في بيت طوله عشرة أذرع ، وعرضه ثمانية أذرع ، يُلقى إليه من كوة في وسطه ، ومن هنا سميت الملتان : ثغر بيت الذهب ، تمييزاً لها من بقية الثغور . . .

وفي صباح يوم من الأيام القريبة من فتح الملتان والاستيلاء على بيت الذهب فيها ، كانت سفينة من سفن المسلمين تخفق شرعها في الهواء ، وتضرب مجاديفها في ماء بحر الهند ، متجهة

نحو بحر فارس لتلقى بأوساقها في ثغر البصرة ، حيث يبلغ بها
المطاف إلى دار أمير العراق : الحجاج بن يوسف .

ونظر الحجاج فيما حُمل إليه من ثغر الملتان مما بعث به إليه
بطل السند محمد بن القاسم ، فكان مائة وعشرين ألف درهم ...
ونظر في النفقة على فتح ذلك الثغر فكان مجموعه ستين ألف
درهم . . . فقال : ربحنا ستين ألفاً ، وأدركنا ثأرنا ،
ورأس ذاهر . . .

هدايا من السند

ظل بطل السند - محمد بن القاسم - بعد سقوط الملتان سنة ٥٨٩ هـ إلى ٥٩٥ هـ وهي السنة التي مات فيها الحجاج - أمير السند كلها لا ينازعه فيها منازع ، ولا يقوم سلطانٌ بجانب سلطانه ، ولا تقضى الأمور إلا بكلمة منه ، ما عدا مدينة الكيرج التي كان ملكها يسمى دوهرًا ، فقد بقيت في غير حكم العرب الفاتحين إلى أن كان لها شأن مع محمد بن القاسم بعد وفاة الحجاج بقليل .

وكأنما كتب الله لبطل السند أن يلقى بعض الهدوء ، ويذوق طعم الراحة في هذه السنوات الخمس بعد أن دانت له السند كلها بالطاعة ، وأقرت له بالفتح ، وسلمت عليه بالإمارة .

وانسابت الأموال في يد البطل المغامر ، وأفاء الله عليه وعلى المسلمين من الخير ، وفتح لهم من الثراء ما استبد الملوك في جمعه ، وما جهد الكهان في تكديسه . وتفتحت كنوز

السند أمام المسلمين بما تحمله من تاريخها الطويل .
 وفتح ابن القاسم دار الإمارة في السند على مصراعيها
 يستقبل الوافدين ، ويكرم النازلين ، ويعطى عن سخاء فيه
 لا عن تساخ ، ويظهر أن الكرم طبيعة في نفوس بني ثقيف ،
 فقد رووا أن الحجاج كان يعطى بلا حساب ، وذكروا أنه
 كان يضع في كل ألف خوان في شهر رمضان ، وفي سائر
 الأيام خمسمائة خوان ، على كل خوان عشرة أنفس .

وإذا صح ما استظهرناه من كرم بني ثقيف فإن بطل
 السند جاء على غرارهم ، ونسج على منوالهم ، فقد أعطى حتى
 مدحه الشعراء بأجزال العطية ، قدر ما مدحوه بصدق البلاء
 في المعارك ، وحسن الثبات في المواقف . فهذا أبو الجويرية
 الشاعر يمدحه فيقول :

قل للذين بواسط وبغيرها ممن مسائله ترد رتنجح
 السند ! ائت السند إن أميرها بحر يطم على العفاة ويطفح
 ما زال يعطى قاعداً أو قائماً حتى حسبت أبا عقيل يمزح

فهو يعطى على كل حالة : قاعداً أو قائماً ، كما كان هرم
 ابن سنان في الجاهلية يعطى على العلات . . .

والشاعر أبو الجويرية في هذه الأبيات يُغري أهل مدينة
 واسط العراقية ، التي بناها الحجاج - ويغري أهل غيرها من
 المدن بأن يقصدوا بطل السند وأميرها محمد بن القاسم ، فهو
 بحر يفيض بالعطاء ، ويطم على مُعتفيه وقاصديه ، وما زال
 يعطى على اختلاف الحالات حتى حسبنا العطاء عنده ضرباً
 من المزاح . . .

وليس لدينا من أخبار عطايا بطل السند للشعراء والمعتفين
 ما تطمئن إليه النفس ، فإن أخبار الرجل نادرة مبعثرة كما سبق
 الكلام ، وهي في جملتها لا تصور البطل من ناحية سخائه وعطائه ،
 كما أن ما قيل فيه من شعر المديح بالشجاعة والبرسالة لا ينهض
 له بفضل أو لا يقوم له بجزء . فلقد كان من حقه على شعراء
 عصره أن يطيلوا المديح فيه ، وأن يكثروا القول في فتحاته ،
 ولكن حظ الرجل مع المؤرخين كحظه مع الشعراء ، فإذا كان
 نصيبه ونصيب سيرته من التاريخ ضئيلاً قليلاً ، فإن نصيبه من
 شعر الشعراء أقل وأضال . . .

على أن أغرب ما قرأناه عن هدايا بطل السند من السند
 هو ذلك الخبر الذي ذكره أبو النعمان الأنطاكي حيث قال :

(كان الطريق فيما بين أنطاكية والمصيصة مسبعةً يتعرض للناس فيها الأسدُ ، فلما كان الوليد بن عبد الملك سُكِيَ ذلك إليه ، فوجه أربعة آلاف جاموسة وجاموس ، فنفخ الله بها ، وكان محمد بن القاسم الثقفي ، عامل الحجاج على السند يبعث منها بألوف جواميس ، فبعث الحجاج إلى الوليد منها بما يبعث من الأربعة آلاف) فابن القاسم يبعث آلاف الجواميس من السند إلى الحجاج ، والحجاج يبعث منها أربعة آلاف إلى أرض ذات سباع ، فتستحيل تلك المسبعة إلى أرض زراعية ، تُغَلُّ أطيب الثمرات ، ويبدلها الله من خوفها أمناً . . .

- ويُطرفُ بطلُ السند ويُغرب في هداياه كما أغرب وأطرف في فتوحه . . . وهو هذه المرة يهدى إلى الحجاج من بلاد السند فيلا ، فيسُجَّاز به البطائح في سفينة ، ويُخرجُ في مَشْرَعَةٍ نسبت إليه من ذلك الحين ، فقييل : مَشْرَعَةُ الفيل . . .

ومرة ثالثة نصادف بطل السند وهو يبعث إلى الحجاج يهديه بشرية مما أنبتته أرض السند . . . إنه يبعث إليه بجماعة من الزُّط السند ، فيبعث بهم الحجاج إلى الشام ، ويأمر الخليفة الوليد بن عبد الملك بنقلهم إلى أنطاكية . . .

الحق أن هدايا بطل السند من السند ثقيلات الأوزان ،
ضخام الأبدان . . . حين توضع في الميزان . فأين هداياه من
نفائس ملوك السند الحفيفات الحمل الغاليات الأثمان !؟؟

فتح جديد

كان محمد بن القاسم في دار الإمارة الفخمة بالملتان حين جاءه البريد من العراق يحمل نبأ وفاة أمير العراق: الحجاج ابن يوسف الثقفي، ابن عم بطلنا، ومعه إقدام نفسه على المكاره في الحروب.

وجلس البطل يستمع من رسل العراق ونعته أبناء المية التي مات عليها أمير العراق ومُسكنُ فتنته، وواضع الأمور فيه على قرار مكين. قال أحدهم - والدمعة تخنقه - وكان صنيعه من صنائع الحجاج:

- لما حضرت الوفاة ابن عمك يا أمير السند وأيقن أنه صائر لا آلة إلى الطريق الآ لا يرجع منها سائر، قال: أسندوني؛ وأذن للناس فدخلوا عليه، فذكرت الموت وكربه، واللحد ووحشته، والدنيا وزوالها، والآخرة وأهوالها، وأنشأ يقول:

إن ذنبي وزن السموات والأر
ض وظني بخالقي أن يُجاني

فلئن آمن بالرضا فهو ظني ولئن مر بالكتاب عذابي
 لم يكن ذاك منه ظلماً وهل يظ لم ربُّ يُرجى لحسن المآب ؟
 فحبس البطل الشاب عبرة كادت تترقق في عينيه وقال :

— رحمك الله يا ابن العم ! ويا أمير العراق ! إن رحمة
 ربك وسعت كل شيء . إن البلاد التي فتحت بتدبير الحجاج
 ورأيه وإمداداته وإشاراتِهِ من بخارى إلى سمرقند ، ومن فرغانة
 إلى السند ، لتشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسوله ،
 وأنتك يا ابن العم رفعت فيها للإسلام مناراً ، وبنيت فيها لدين الله
 مساجد ، وأن مثلي ومثل قتيبة والمهلب هم الأداة التي نفذت
 تدبيرك ، واتبعت خططك ، وتابعت سديد رأيك ، حتى لقد
 قبل القائد المجاهد والفتاح العظيم قتيبة بن مسلم سديد رأيك
 حين استخلف على جند المسلمين أخاه صالح بن مسلم فكتب
 إليه تلومه وتبصره قائلاً : (إذا غزوت فكن في مقدم الناس
 وإذا قفلت فكن في أخرياتهم وساقهم) !

واسترجع المسلمون وجيرش الفتح في السند حين بلغهم نبأ
 وفاة الحجاج ، وأجمعوا أمرهم أن يعضوا في الغزو مع قائدهم
 بطل السند إلى غايته ، حتى تدعن البلاد كلها لطاعة الدواة .

ودخل في نفس بطل السند شيء من الخوف والقلق على مركزه في إمارة السند بعد وفاة ابن عمه الحجاج ، فقد كان البطل كما أسلفنا ربيبه وصنع يديه . ولكن بطل السند كان يُبعد أسباب القلق عن نفسه بأن مثل الخليفة الوليد بن عبد الملك في عقله ووزنه لأقدار الرجال لا ينتقص أجر عامل ، ولا يتخلى عن رجل فتح باسمه وبجيشه وبماله للأمويين فتوحاً لم تكن تخطر على بال .

ولقد ابتلى الوليد نفسه جهاداً بطل السند وعرف صدقه في الحرب وولائه في الخدمة معرفة اليقين ، ففيم يخاف ابن القاسم على مركزه ، وفيم يتسرب إلى نفسه هم ووسواس ؟ أينظر البطل الشاب قاعداً عن الغزو ، ممسكاً عن الجهاد ، حتى يأتيه عهد الخليفة الأموي وموثقه بأنه باق في إمارة السند بعد موت الحجاج سنده ودعامته ؟ لا ! إنه لأكبر من أن يجزع لمثل هذا ، وما هو إلا جندي من جنود المسلمين ، عاهد الله على الطاعة ، ووثقه على الجهاد ، فلا يضيره أن يكون قائداً أو مقوداً ، وسيداً أو مسوداً .

لم تسبق لخالد بن الوليد سابقة في الطاعة حين ولى الخلافة

عمر بن الخطاب ، فكتب كتاباً بعزل خالد من إمارة جيش الشام وتولية ابن الجراح مكانه ، فأخذ خالد الكتاب وأسره إلى ابن الجراح ، ولم يُدعه بين أفراد الجيش ، لثلاثين قوتهم ، وتفرق صفوفهم ، ومضى في المعركة إلى نهايتها بالنصر للمسلمين ، فسلم كتاب عمر بن الخطاب ، وسلم عليه تسليم الإمارة ؟ وأخذ موضعه من الجيش جندياً تحت قيادة القائد الحديد ؟

فلا يضير بطل السند بعد هذا أن يبقى في منصبه بالسند أو يعزل ، إنه سيمضى في الغزو إلى النهاية التي كتبها الله للمجاهدين الصابرين . . . وخرج البطل في جيشه راجعاً إلى مدينة الرور والبغور ، وهما مما فتح الله به عليه قبلاً ، فأعطى الناس الأعطيات ، وسمع إلى الشكاوى ، نظر في أمور أهلها بما يوجب العدل وتقضى به المصلحة . ثم توجه من هنا إلى مدينة البيلمان ، فلم يقاتله أهلها ثقة منهم بأن جند المسلمين هم الغالبون ، فأعطاهم ابن القاسم الطاعة والأمان . ومضى إلى ثغر سرشت ، وهي مغزى أهل البصرة ، وقد اشتهر أهلها بقطع البحر ولصّ المسافرين ، كما كان أهل مدينة الديبل ، فطلبوا الأمان فأمّنهم على أن لا يقطعوا بحراً ، ولا يهاجموا ركباً .

سبحان الله ! هؤلاء القراصنة المنتشرون على ثغور بحر الهند ، كانوا يُخيفون الطريق ، ويقطعون البحار على السفن الغادية والرائحة ، فلا يسلم منهم راكب ، ولا ينجو منهم عابر ، حتى لقد اعترف ملك داهر - كما قرأنا قبلاً - أنه لا سلطان له عليهم ، ولا قبل له بهم . . . ثم يجيء اليوم شاب عربي مسلم في السابعة عشرة أو فوقها بقليل ، فيحلُّ الأمن محل الخوف ، ويؤدب العصاة وقطّاع البحار ، فيسود الهدوء ثغور بحر الهند وسواحلها ، ولا تسمع بعد اليوم نبأ واحدة عن غارة على مركب ، أو سطو على سفين . . . ؟

بقيت أمام بطل السند مدينة الكيرج ، ومملكتها دوهـر ، وكان يعدل الملك داهر في الشهرة والسلطان ، فأتى محمد بن القاسم المدينة غازياً . حتى لا تبقى هذه المملكة شوكة في جنوب المسلمين ، فخرج الملك دوهـر في ألوف من رجاله . وهم على متون الأفيال الضخام ، كأنها قطع من السحاب الثقال الدواكن ، والنقع يُثارُ في الجو كثيفاً ، حتى لو ابتغت الخيل والفيلة عسكراً عليه لأمكن . . . والسيوف تلمع في عجاجات الغبار الأسود كأنها كواكب تنهاوى في ظلمات ليل أليل . . . وقاتل

المسلمون قتالا شديداً كعهدهم في كل معركة خاضوا غمراتها ،
فانهزم العدو وهرب دوهـر ماتمـساً النـجاة بـنفسه بـعد أن فـي
جيشه . ولكن سيوف المسلمين لاحقته في مهـر به ، لأنها سيوف
كالدهـر لا ملجأ مـنـه ولا هـرب . فقتل دوهـرُ مـلـكُ الكـيـرِج كما
قتل ذاهـر من قبله . وهـنا هـزت الحماسة قلب الشاعر الراجز ،
فقال يُزهي بهذا النصر المبين ، والفتح العظيم :

نحن قتلنا ذاهراً ودوهراً والحيل تُردى منسراً فنسرا

* * *

ومضى عام ٩٥ من الهجرة بما حمله من خير وشر . . .
ومضى بوفاة الحجاج بعد مرض يقال إنه ألح عليه فتساقطت
نفسه أنفساً . . . ومضى بغزوة غزاها قتيبة بن مسلم حتى أمعن
في أرض بكرمشاهان أو بلاد الشاش ، ومضى بفتوح بطل
السند لليلمان وسرشت والكيرج ومقتل الملك دوهـر كما سبق
الحديث . وطلع عام ٩٦ من الهجرة بما لا يدري الناس ولا
يعلمون . . . لأن الليالي من الزمان حبالى ، يلدن والله وحده
أعلم بما يلدن . . . فاللهُ وحده يعلمُ ما في الأرحام ، كما يعلم

ما في مستكن الغيب ، وكما يعلم وحده ما تخفى الصدور . . .
 جاء عام ٩٦ من الهجرة ، ومضى بطل السند يقطع الشهور
 الأولى منه في غزوات هنا ، وغارات هناك ، تمكيناً لقواعد
 العرب في البلاد الجديدة المفتوحة ، والتي لا تزال على حداثة
 عهد بالإسلام . وفيما هو يمكن لمراكزه ومراكز جنده في السند
 إذا بنى الخليفة الوليد بن عبد الملك يأتيه في ليلة من ليالي
 النصف من جمادى الآخرة . فيجزع بطل السند لوفاته ، لأنه
 مكن له في إمارة السند عاماً آخر بعد وفاة ابن عمه الحجاج
 أمير العراق . ولأن الوليد بن عبد الملك كان باراً ببني ثقيف ،
 عطوفاً عليهم ، مصطنعاً لهم ، وخاصةً أهل بيت الحجاج
 من بني ثقيف ، وسنعرف عما قليل أسباب هذا البر من الوليد
 ببيت الحجاج عامة وبالْحجاج خاصة .

والحق أن وفاة الوليد بن عبد الملك كانت سبباً لأن يجزع
 الناس لها ، ويحزنوا من أجلها . فلقد كانت سوقُ الجهاد
 قائمة في عصره ، فوق ما كانت قائمة في عصر سلفه وأبيه
 عبد الملك . ولم يكن للناس شغل في عهده غير الجهاد والفتح ،
 والبناء والتعمير ، حتى ليلقى الرجلُ من المسلمين أخاه في عهده

فيسأله عن الفتوح والغزوات ، والأبنية والعمارات ، على حين كان الناس في عهد أخيه وخلفه سليمان بن عبد الملك يتلاقون فيسأل بعضهم بعضاً عن ألوان الطعام ! لأن سليمان كان يحب ألوان المطاعم . . . والناس على دين ملوكهم . . . !

والحق أن جيوش المسلمين في عهد الوليد بن عبد الملك فعلت للإسلام ما لا يقل عما فعلته جيوش الفاتحين في عهد عمر بن الخطاب . ففي عهده علت كلمة الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها ، وبرها وبحرها . حتى ملئت قلوب الأمم والملوك رعباً وفزعاً . لا ينامون على قرار ، ولا يصحون إلا على هلع . فإذا ناموا أفرعتهم الأحلام بجيوش المسلمين ، وإذا تنبهوا راعتهم جيوش الإسلام . هي تسل سيوفها ، وتكتسح إلى النصر طريقها .

وكانما كان النصر موكلاً بالمسلمين في كل غارة اقتحموها ، فما دخلوا بلداً إلا فتحوه ، ولا توجهوا إلى قطر إلا أخذوه . وكان في عسكرهم الصالحون والأولياء والعلماء والتابعون ، والمؤمنون بوعد الله وهو حق . ا فقتيبة بن مسلم يفتح بلاد الترك ، ويصل إلى تخوم الصين ، حتى يخافه ملكها فيرسل إليه الهدايا

والتحرف والمال الكثير ، يسترضيه ويستعطفه مع قوته وكثرة
جموده . وسلمة بن عبد الملك أخو الخليفة الوليد بن عبد الملك
يُمكن في بلاد الروم ، ويجاهد بعسكر الشام حتى يبلغ
القسطنطينية ، ويبني فيها مسجداً يعمره من آمن بالله واليوم
الآخر ، فتمتلئ قلوب الفرنج من المسلمين رعباً . . . وموسى
ابن نصير يجاهد في المغرب ، وينشر الإسلام في كل مرحلة
من مراحل الغزو ، ويغزو رجاله جزيرة ميورقة من جزائر
البحر المتوسط « البحر الأبيض المتوسط » ، ويبلغ رجاله طنجة ،
ومنها تبدأ قصة الفتح العربي للأندلس على يد طارق بن زياد . . .
ومحمد بن القاسم نفسه يصل إلى أعماق السند وأطرافها وثورها ،
فيزيل منها دول الأصنام والأوثان ، ويجعل فيها الكامة لله
الواحد الديان . . . فعند بطل السند محمد بن القاسم للجزع على
موت الخليفة الوليد بن عبد الملك أسباب وأسباب . . .

في أعقاب موت الوليد

مات الخليفة الوليد بن عبد الملك سنة ٩٦ من الهجرة كما سلف القول ، فكانت وفاته أشد على نفس بطل السند من وفاة الحجاج ابن عمه . لقد كان الحجاج أميراً على العراق ، وهو لا يعدو أن يكون عاملاً من عمال أمير المؤمنين ، فما دام الخليفة راضياً عن ابن القاسم فإنه مُوقن بأن عمله باق لا يتغير ، ولئن مات الحجاج دعامة ابن القاسم وسنده ، إن الخليفة لفيه نعم السند لفتى مجاهد هو وأهله من بنى ثقيف صنائع الأمويين . ولكن السند قد مات اليوم ، وجاء خليفة جديد — هو سليمان ابن عبد الملك — يكره الحجاج وأهله ومن يمت إليه بماتة ، قريبة أو بعيدة من الرحم ، ويتمنى بجدع الأنف لو نُخلى بينه وبين بنى ثقيف جميعاً .

فما سر هذه الكراهة والعداوة من الخليفة سليمان بن عبد الملك ، للحجاج الذي شد الرحال إلى رحاب ربه ، ولكل قائم وقاعد من أهل الحجاج ؟

لا بد للجواب عن هذا السؤال من الوقوف بعض الوقوف على حديث ولاية العهد من أيام مروان الخليفة الأموي إلى من جاء بعده على الولاء ، وهم عبد الملك ، والوليد ، وسليمان . فإن في هذه الوقفة القصيرة مفتاح القضية التي نحن بصدددها ، والتي نُكَبِّبها بطل السند نكبة لم ير الرءاون مثلها في الجحود والنكران ونسيان أعمال الأبطال .

كان مروان بن الحكم هو الخليفة الرابع من خلفاء الأمويين ، وقد جعل ولاية العهد من بعده لابنه عبد الملك أولاً ، ثم لابنه الآخر عبد العزيز من بعده . وفي سنة ٨٥ وقبيل وفاة عبد الملك بن مروان بعام واحد ، أراد هذا الخليفة أن يعزل أخاه عبد العزيز من ولاية العهد ، ويجعل مكانه ابنه الوليد بن عبد الملك ، يريد بذلك نقل الخلافة من الأخ إلى الابن . وكان في عبد الملك ميلٌ إلى المشاورة في الأمور قبل المضى فيها ، حتى تنكشف له وجوه الرأى عما يمكن أن يمضى فيه . فاستشار في ذلك اثنين من خاصته وأهل الخطوة لديه والقربى عنده ، وهما قبيصة بن ذؤيب ، وروح بن زنباع ، فهما قبيصة لمن عمل لا تُحمد مغبته ، ولا تؤمن تهمةُ الغدر فيه ،

وأقره رُوْحُ بن زنباع وشجعه على خلع أخيه قائلاً : لو خلعت ما انتطح فيه عنزان . . . وفيما هو من التردد بين الإقدام والإحجام إذ جاءه الخبر بوفاة أخيه عبد العزيز . . . فقال لروْح : كفانا الله يا أبا زرعة ما كنا فيه وما أجمعنا عليه .

وبهذا حل الموتُ مشكلةً أقلقت بال عبد الملك فاستراح ، وتخلص - على يد ملك الموت - من أخيه ، وعهد بالخلافة إلى ولديه الوليد أولاً ، وسليمان من بعده . وكتب بالبيعة لهما عهداً بعث به إلى الأمصار ، فبايع الناسُ كلهم إلا سعيد بن المسيب فامتنع ، وإن كان ذلك لا يُقدم ولا يؤخر في القضية التي نحن بسبيلها . . . وجاء الوليد بعد أن جاءته الخلافة عقب وفاة أبيه عبد الملك ، فأراد أن يُعيد الذي عمله أبوه من قبله . وذلك بأن يعزل أخاه سليمان من ولاية العهد ، ويجعلها لولده هو عبد العزيز بن الوليد . . . وبذلك تنتقل الخلافة من الأخ إلى الابن . وجهد الوليد لذلك جهده ، وأحكم خططه ، ودعا الناسَ إلى ذلك ، فامتنع عليه أكثرهم ، ولم يجبه إلى عزل أخيه سليمان إلا الحجاج بن يوسف الثقفي أمير العراق ، والقائد الغازي قتيبة بن مسلم ، وبعض خاصته .

ولقد دخل جماعة من الشعراء في مسألة ولاية العهد لعبد العزيز ابن الوليد ، فدعوا له ، ورأوه أحق من عمه سليمان ، وحرصوا الخليفة الوليد على عزل أخيه سليمان من ولاية العهد وجعلها لعبد العزيز بن الوليد . ومن هؤلاء جرير الشاعر الذي أكثر المدائح في عبد العزيز . ودعا الناس إلى مبايعته فقال فيه :

إلى عبد العزيز سمت عيون الرعية إن تُخَيَّرت الرعاءُ	إليه دعت دواعيه إذا ما
عماد الملك خرت والسماءُ	وقال أولو الحكومة من قریش
علينا البيع إذ بلغ الغلاءُ	رأوا عبد العزيز ولي عهد
وما ظلموا بذلك ولا أساءوا	فزحلفها ^(١) بأجمعها إليه
أمير المؤمنين إذا تشاءُ	فإن الناس قد مدوا إليه
أكفهم وقد برح الخفاء	ولو قد بايعوك ولي عهد
لقام القسط واعتدل البناء	

على أن جريراً كان موالياً لعبد العزيز بن الوليد قبل ظهور مسألة ولاية العهد ، وقد ظفر منه بأسنى الجوائز ، وأكرم الصلات . وقد كان عبد العزيز لا يرد له مسألة ، ولا يُخيب قصداً ، حتى بدت عليه آثار عطاياه فقال فيه :

(١) زحلفها : ادفعها .

إلى عبد العزيز شكوتُ جهداً
 سنين مع الجراد تعرقتنا
 ولولا فضل نائله علينا
 سنشكر من له أثر علينا
 من البيضاء^(١) أو زمن القناد
 فما تبقى السنون مع الجراد ؟
 لما أحيا بنى ولا تلادى
 كآثار الولي على العهد

فلما مات عبد العزيز رثاه جرير بتصيدة يقول منها :

نعوا عبد العزيز فقلت : هذا
 فبتنا لا نقرُّ بطعم نوم
 وأظلمت البلاد عليه حزناً
 جليلُ الرزء والحدَث الكبير
 ولا ليلٌ نكابه قصير . . .
 وقلت : أفارق العمر المنير ؟؟

* * *

وأشار بعض الخاصة من ذوى التدبير على الخليفة الوليد
 أن لا يصل إلى عزل أخيه سليمان عن طريق القوة والسلطان
 من ناحيته ، ولكن عن طريق استقدام سليمان والرغبة إليه في
 خلع نفسه من ولاية العهد ، والبيعة لابن أخيه عبد العزيز .
 وقد كان في ذلك الحل حلٌّ للمشكلة على وجه ليس فيه
 عنف ، ولكن فيه من إيجاء القوة ونعومة المدخل ما لا يذهب

(١) السنة البيضاء : هي السنة المحدية .

ببشاعة العمل كله . فإن سمة الغدر في العزل لا تزال تطبع
العمل ، سواءً أكان العزل إنزالاً من صاحب السلطان ، أم
نزولاً من صاحب الحق . . .

وكتب الخليفة الوليدُ بن عبد الملك إلى أخيه سليمان
يستقدمه ليأخذ منه إقرار النزول عن ولاية العهد ، فاعتلَّ سليمان
أو أظهر العلة . . . فأراد الوليد أن يسير إليه بنفسه ، وأمر
الناس بالتأهب ليسيروا معه ، للتعجيل بأخذ التنازل منه لابنه ،
ولكن الموت - في هذه المرة أيضاً - حال بين الوليد وبين
أمنيته ، فلم تتم محاولته لعقد ولاية العهد لابنه عبد العزيز ،
ومات الوليد . . .

وانحلت مشكلة ولاية العهد هذه المرة أيضاً على يد ملك
الموت الذي يحل ما استعصى من المشكلات ، لو كان الناس
يتعظون ، أو يفتحون عيونهم وآذانهم على العبر العظيمة ، والحكم
البالغة التي تمر بهم . . . ولكن الله يقول ، وهو أصدق القائلين :
« حكمة بالغة فما تغني النذُر » .

وذهب الوليد إلى جوار ربه بما كسب لنفسه من إثم وصالح ،
وانتهى ما بينه وبين الناس في الدنيا من صراع وخلاف ، ليبدأ

ما بين أخيه سليمان الخليفة الحديد ، وبين الناس من أحقاد النفوس .

لقد كان سليمان حاقداً على الذين وافقوا أخاه الوليد على خلعه من ولاية العهد ، وعلى رأسهم الحجاج بن يرسف الثقفي . وبات سليمان - قبل أن يلى الخلافة - لا يطبق اسم الحجاج ، ولا يطبق اسم واحد من أهله وخواصه ، بل لا يطبق اسم ثقيف كلها ، لأنها أخرجت هذا الرجل الذى يُقر خليفته على الغدر بعهد أخيه وكذلك كره سليمان بن عبد الملك القائد الفاتح قتيبة بن مسلم ، لأنه ذهب مع الحجاج فيما ذهب إليه من عزل سليمان والبيعة لعبد العزيز بن الوليد ، حتى لقد خافه قتيبة حين صارت الخلافة إليه ، وامتنع عن المبايعة له ، وعزم على خلعه من الخلافة وتترك طاعته ، ودعا الجند والجيوش إلى ذلك ، فسلط سليمان عليه - فى وسط الجوع - من قتله وقتل معه أحد عشر رجلاً من إخوته وأبناء إخوته .

وكذلك كان مصرع القائد الفاتح المجاهد الذى أبلى فى الله أحسن بلاء ، وهدى الله على يديه إلى الإسلام خلقاً لا يحصيهم إلا الله ، ولو لم يعجل الموت إلى الحجاج بن يوسف

قبل تولية سليمان الخلافة لما كان مصيره إلا القتل ، كما قتل قتيبة ابن مسلم ، ولم يُرْعَ في الله بلاؤه ، ولا في سبيل الإسلام جهاده .
ومن هنا كان جَزَع بطل السند محمد بن القاسم على موت الخليفة الوليد ، ومن هنا كان خوفه من سليمان بن عبد الملك حين صارت الخلافة إليه ، ودُعي له على منابر الإسلام . . .

ولم يكن بطلُ السند مستنداً في مخاوفه إلى غير أساس ، فهو يعلم الدور الذي قام به الحجاج لإقصاء سليمان عن الخلافة ، لولا أن الموت جاء بغير ما يهوى الوليد وخاصته ، وهو يعلم أن سليمان لم ينس هذه الفعلة للحجاج حتى لقد كره أهل الحجاج جميعاً من أجلها ، وكرهَ بنى عقيل قوم الحجاج ، بل كره ثقيفاً كلها . . . وهو يعلم — فيما جاءه من الأنباء وهو بالسند — أن ابن عمه الحجاج كان يخشى أن يموت الوليد بن عبد الملك قبله ، فيقع الحجاج في يد سليمان بن عبد الملك . لولا أن الله عجلَ بوفاة قبل وفاة الوليد ، فمات مصوناً لم ياحقه سليمان بأذى ولا عذاب ، ولم يأمر بقتله كما قتل قتيبة ابن مسلم . . .
نعم ! لقد كان بطل السند يعلم ذلك كله من الخليفة

الجديد سليمان بن عبد الملك . ولكن ماذا يصنع ليرضى هذا القلب المنظوى على حقد وكرهه ؟ إنه لم يسيء إلى سليمان ابن عبد الملك ، ولم يُشر على الوليد بعزله من ولاية العهد وإقصائه عن طريق الخلافة ، ولم يُسهم فيما كان العراق آخذاً فيه من الفتن . . . وإنما كان بعيداً عن ذلك كله ، فكيف يجنى غيره ويُعذب هو؟ والله يقول : « ولا تزر وازرةٌ وزرَ أخرى » ؟

إنه مُرابط في السند التي فتحها بحد سيفه ، منتظراً أمر الخليفة الجديد ، فإنه قائد عسكري يُعرف بالطاعة ، ولا يخرج إلى عصيان ، لأنه ليس له في السلطان رغبة ، وما به إلى الإمارة اشتها . . .

* * *

وجاءت أوامر الخليفة سليمان بما كان متوقفاً من مثله ، فعزل قتيبة بن مسلم عن إمارة العراق وخراسان ، وجعل مكانه يزيد بن المهلب ، وبذلك رده إلى إمارة خراسان بعد البعد عنها عشر سنين . . . ثم أمر يزيد بن المهلب بمعاينة آل الحجاج

ابن يوسف الثقفي ، وكان الحجاج هو الذي عزل يزيد عن خراسان . . . ثم جاء أمرٌ جديد بعزل بطل السند محمد بن القاسم عن إمارة السند ، وتولية يزيد بن أبي كبشة مكانه . فكان ذلك العزل أول ما يلقاه البطل المجاهد من أجر المجاهدين . . .

البطل المعزول

نحن الآن في العام الخامس والتسعين من الهجرة حينما جاء أمر عزل ابن القاسم عن إمارة السند بعد أن قضينا معه في فتوحاته بضع سنين ، تبدأ من السنة التاسعة والثمانين في خلافة الوليد بن عبد الملك . ولقد جاء يزيد بن أبي كبشة إلى السند ، لا فاتحاً ولا غازياً ، ولكنه جاء بكتاب من سليمان بتعيينه والياً على السند وعزل محمد بن القاسم ولقد كان بطل السند رجلاً على الرغم من حداثة سنه ، حتى في الساعة التي يفقد فيها الرجال أسباب التصرف ، ويُضيعون أزمّة التدبير

لقد استقبل ابن القاسم والي الجديده ، والأمير الذي عين بدلاً منه استقبال الرجل الهادي ، والبطل الذي لا يبالي بحدث مهما اشتد ، ولا بخطب مهما جد وجاء الأمير الجديده في جلال الإمارة ، وعز السلطان ، وكان الدالة عند الخليفة سليمان . جاء في أبهة الإمارة إلى رجل زالت الإمارة عنه ، ولكن لم يزل فضله جاء في موكب فخم إلى فتي تعطل من

المواكب ، وتجرد من الحاشية ، وصفرت يدها من كل كلمة
أمره أو ناهية . . . جاء وليس بينه وبين بطل السند من أسباب
الحقد ما يدعوه إلى اتخاذ موقف التجهم له والسخط عليه .
إلا أنه جاء متأثراً بحقد الخليفة وكرهيته ، فأراد أن يكون خليفياً
أكثر من الخليفة ؛ أو كما يقولون اليوم ملكياً أكثر من الملك ..

وكل ذنب بطل السند حتى يُعزل ويلقى هذا الجزء
الجاحد ، أنه ابن عم الحجاج الذي كان الخليفة سليمان يحمل
له في نفسه شيئاً ، لأنه أقر الوليد على عزله من ولاية العهد
وتنحيته من طريق الخلافة . ولقد مات الحجاج ، وكان يُظن
أن الموت سيزيل هنا أسباب العداوة ، ولكن سليمان كان
غاضباً على بنى عقيل قوم الحجاج كلهم ، لم يستثن منهم
أحداً . . .

وتحت تأثير هذا الشعور الذي يجاهر به الخليفة سليمان
لقوم الحجاج جاء الوالى الجديد إلى السند . فلنر ما إذا كان
موقفه من البطل المعزول .

أخذ يزيد بن أبي كبشة محمد بن القاسم في عنف لا يليق
بمثله ، ولا تستوجه آثاره في البطولة العربية ، ومواقفه في

الفتوح . . . أخذه مقيداً في الأغلال ، مشدوداً في الوثاق ،
 كما يؤخذ المجرمون بالنواصي والأقدام . . . ووكل به وهو في
 محابس القيد ، والحديد يعضُ بيديه ورجليه ، رجلاً غلاظ
 الأكباد ، وحراساً قساة القلوب ، حملهم معه من العراق وعلى
 رأسهم معاوية بن المهلب لينجزوا له مهدة التكبيل والتغليل على
 أتم الوجوه قسوة ، وأشدّها غلاظة وفضاعة .

ويروى المؤرخ ابن الأثير هنا أن محمد بن القاسم قال

متمثلاً :

أضاعوني وأى فتى أضاعوا ليوم كريمة وسداد ثغر
 ولقد أحسن بطل السند في هذا المقام التمثيل بهذا البيت ،
 ولكنه لم يجد سمياً ولا مجيباً ، كما سمع جارُ أبي حنيفة النعمان
 خير سميع وخير مجيب من أبي حنيفة ، حينما نزلت بهذا الجار
 محنةً في ظلمات ليل . . .

فقد حدثوا أن أبا حنيفة النعمان كان له جار مولى بالشراب
 يُحبي الليل شارباً ، ويحبيه أبو حنيفة قائماً لله . وكان هذا
 الجار المدمن يغنى بالليل ، كلما ثمل ، هذا البيت :

أضاعوني وأى فتى أضاعوا ليوم كريمة وسداد ثغر

فجاء العسس ليلة وأوقعوه في الحبس ، ففقد أبو حنيفة
صوته ، فعلم أن الشرطة حبسوه ، فكتب إلى الوالي ، وتكلم
في شأن العفو عنه ، فأطلق سراحه وسراح مَنْ أخذ في تلك
الليلة إكراماً لأبي حنيفة .. وعلم الرجل بيد أبي حنيفة عنده ،
فأقبل عليه يشكره ، فقال له أبو حنيفة : هل أضعناك يا فتى ؟
قال : لا والله ! ولكنك برّرت وحفظت ...

أما سليمان بن عبد الملك فما بر ولا حفظ ، بل أضاع فتى
مجاهداً جريئاً ، وبطلاً فاتحاً مغواراً ، أخذ بذنب غيره ،
وعوقب بجريرة سواه ، فكان شأنه شأن القائل :
غيري جنى وأنا المعذب فيكم فكأنني سبابة المنتدم^(١)

ويروي ابن الأثير أن أهل السند بكوا على محمد بن القاسم .
وحق لهم أن يبكوا . فقد فتح بلادهم على نضارة من السن ،
وطراءة من الشباب ، وكان في يده القيادة والسيادة ، والأمر
والنهي ، والجاه والسلطة . فما اغتر بذلك كله ، ولا خدعه عن
نفسه ولا عن ربه . لقد كان مثال المسلم الكامل : قوة في

(١) سبابة المنتدم : هي أصبع الرجل النادم يعضها وهي لم تجن ذنباً ..

القلب أو شدة في البأس ، ومبالغة في العدل ، وسعة في البذل ،
وتحريراً للحق . ومن هنا علقته به النفوس ، وأحبتة القلوب ،
وبكاه جيشه الغالب ، كما بكاه القوم المغلوبون .

ولم يكد يفرح يزيدُ بن أبي كبشة والى السند الحديد
بمنصبه ، ولم يكد يتهنأ بما صار إليه من إمارة دولة جديدة
واسعة الأطراف ، ولم يكد يرقد الليل مسروراً في أوله حتى
جاءه النذير بالأسحار فقد كان الموت راصداً له ،
وكانت حباتل المذون تُتحكم له سداها ولحمتها ، فمات بعد
قدومه أرض السند بثمانية عشر يوماً . وأغلبُ الظن أنه لم يمِث
بين الضرب والطعن مئتة المقاتلين . . .

* * *

ولم تخفّ لوعةُ أهل السند على محمد بن القاسم ، ولا
بكائهم عليه ، ولا قلقهم للمصير الذي ينتظره في العراق أو في
الشام أو في أية بقعة تكون فيها نهايته . وكأنهم قدّموا البكاء
عليه انتظاراً لما كانوا يتوقعونه من أمره . . . فقد صار إلى مصير
لا يتكافأ مع ما أسلف ، بل هو الجحود بعينه ، والغدر بذاته .

واحتفظ أهل السند والهند فيما احتفظوا به من تذكارات البطل العربي المغامر محمد بن القاسم بصورة له ، صوروها في مدينة الكيرج التي فتحها سنة ٩٥ ، والتي كان يملكها الملك دَوْهر ، فكانت أدل على مكانة بطل السند والهند في قلوب تلك البلاد .

الأسد الحبيس

كانَ الشاعر على بن الجهم - وهو من شعراء القرن الثالث
المجرى - كان يعبرُ أصدق تعبير عن محمد بن القاسم الثقفى
بطل السند ، وهو يقول فى قصيدته التى نظمها وهو فى السجن :

قالت حبست فقلت ليس بضائر	حبسى وأىُّ مهند لا يغمد
أو ما رأيت الليث يألف غيلهُ	كبراً وأوباش السباع ترددُ؟
والشمس لولا أنها محجوبة	عن ناظريك لما أضاء الفرقد
والحبس ما لم تغشهُ لِدنيّة	شعاعَ نعم المنزل المتورد
بيت يجدد للكريم كرامة	ويزار فيه ولا يزور ، ويحفد.

ولعلك أدركت - أيها القارئ الكريم أن بطل السند قد
اقتيد فى الأغلال ليحبس ، ويضيق عليه فى حرите كما يضيقُ
على المجرمين من أصحاب الدنيا والشعاع .

ولقد بلغنا فى الحديث عن بطل السند مبلغَ القبض عليه
وتوكيل معاوية بن المهلب به مع جماعة من أشداء الحراس

يسوقونه إلى العراق ، و يُسلمونه إلى رجل شديد العداوة للحجاج ،
كثير الموجدة عليه ، لأمر سنذكره فيما يحىء من القول ، ذلك
الرجل هو صالح بن عبد الرحمن .

ولم يكن صالح بن عبد الرحمن والياً على العراق ، ولا نائباً
لواليه حتى يُسلمه حراس بطل السند إليه . ولم يكن صالح
حرسياً ولا شرطياً ، ولم يك قواماً على سجون العراق يتولى أمرها
ويدير شئونها . ولكنه كان عامل الخراج على العراق لسليمان
ابن عبد الملك . فلماذا اختاره سليمان بن عبد الملك المهمة القيام
على محمد بن القاسم في سجنه ؟ وما العلاقة بين رجل يقوم على
شؤون الخراج ، ورجل عُزل عن قيادة جيوش السند ، وسيق
مكبلاً في أنقال الحديد ، لا يدري إلى أين يساق ، وماذا
يراد به ؟

لقد شهد بطل السند مدينة واسط وهو في طفولته المتأخرة
وشبابه المبكر . ورأى فيها بيوت أهل من بنى عقيل وهي تتداني
وتترامى ناراها^(١) في حى خاص بهم ، يمتاز من بقية أحياء
المدينة الناشئة النامية بجلال المظهر ، ونضرة النعيم ، وبسطة

(١) أى يتقارب بعضها من بعض .

العيش ، وعرض الجاه . واليوم يُساق إلى واسط ، تلك الحاضرة الحميلة التي بناها ابن عمه الحجاج أمير العراق ، فيراها وقد تغيرت معالمها في ناظره ، وتنكرت له ؛ وعلتها كآبة موحشة بعد أن كان البشر يبدو من كل ثنية فيها ، وكل طريق من طرقاتها ، ومنعطف من منعطفاتها .

لقد كانت واسط بالأمس غير البعيد تنفسح له رحابها ، وتبسط له مضايقتها ، واليوم يدخلها - أو يدخله الحراس إليها - فتضيق في عينيه ضيقاً لا يقوى عليه ، ويضيق صدره بها ضيقاً لم يعهده فيها من قبل . ولكن مدينة واسط في الحق لم تتغير ، وإنما تغيرت الحال بمحمد بن القاسم ، فرآها كثيبة في عينيه وهي في الواقع غير ذلك ، ورآها موحشة في ناظره وهي ليست هنالك . . . ولو أنه عاد إليها في غير هذه الحال التي أعيد بها لرآها كما كانت ، وأنضر مما كانت : قلب العراق النابض ، ومركز الحركة فيه ، ومجتمع الإدارة والتنظيم والتوجيه ، ومدينة الحجاج التي بنى فيها قصرًا للإمارة ، وأنفق عليه ألوف الألوف من الدراهم .

وأقام بطل السند - أو أريد له أن يقيم - في واسط سجيناً

حبيساً ، بعد أن كان له في بلاد السند الأمر والنهي ، والحول
والطول ، والتصرف في الأمور كما يريد ، لا يعارضه معارض ،
ولا يناقضه مناقض .

ولقد أنطق الحبسُ الأليم شاعرية البطل المغوار ، وفي
بنى عقيل فصاحة وشاعرية كانت تجلوها المواقف الجسام .
ألم يكن الحجاج من خطباء العرب الذين كانت تسعى إليهم
المنابر ، وتهتز أعوادها فتتهتز منها قلوب السامعين ؟ ألم يكن
يرقى المنابر ، فيعظ وعظ العلماء وينزل عنها فيفتك فتك
الجبارين ، كما قال عنه الحسن البصري ؟ ألم تحضره
الشاعرية وهو على فراش الموت ، في آخر عهده بالدنيا وأوله
عهده بالآخرة ، فنظم أبياتاً في التوبة والاستغفار ، وهو في
اللحظة التي تضيع فيها بدائه الرجال ؟

نعم ! لقد نطق بطل السند وفي ثقيف وهو في سجنه بواسطة
شعراً يقول فيه .

فلئن ثويتُ بواسطة وبأرضها رهن الحديد مكبلاً مغلولاً
فلربَّ قينة فارس قد رُعتها ولربَّ قرنٍ قد تركتُ قتيلاً

لقد أحسن بطل السند الظن بالخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك حين تجب إساءة الظنون . ولكن القتي الطيب القلب معذور ومعذور . فما أذنب ، ولا اقترب جرماً ، ولا اكتسب إثمًا . وكل ذنبه أنه ابن عم الحجاج الذي كان عدو سليمان المبين .

ولو أن ابن القاسم رأى من وراء الغيث هذا الحبس الذي كان ينتظره حين جاءه نبأ وفاة الخليفة الوليد بن عبد الملك وتولية أخيه سليمان — لو أنه رأى ذلك المصير وقدره ، ما أسلم نفسه ليزيد بن أبي كبشة والى السند الحديد ، ولكان ركب إلى الفرار ألف سبيل وسبيل . ويقول هو في ذلك شعراً منه :

ولو كنتُ أجمعتُ الفرار لوطئتُ إناثُ أعدتْ للوغى وذكور
وما دخلتُ خيل السكاسك أرضنا ولا كان من عكَّ على أمير
وما كنتُ للعبد المزوي تابعاً فيالك دهر بالكرام عشور!

ونخيلُ السكاسك هي خيل الوالى الحديد وأمير السند يزيد بن أبي كبشة ، الذى ينتمى إلى قبيلة السكاسك من كندة ، وهم من العرب اليمانية .

نعم ! كان يستطيع بطل السند الفرار لو أراد ، ولكنه
 — كما رأينا في كل واقعه — جندي لا يعرف الهرب ، ولا
 يلتمس الفرار .

لقد كان مقداماً في كل مراحل حياته القصيرة قِصر أعمار
 الورد ، فلماذا يفر فرار الجبان وهو واثق أنه برىء ؟
 إن الأبطال يُقدمون على الموت في ساعة يتأخر فيها سرج
 الجبان ، فقيم الغضاضة إذن من السجن ولو كان طريقاً إلى
 الموت ؟

نأر قديم

قد يكون للخليفة سليمان بن عبد الملك بعض العذر في
نقمته على قوم الحجاج جميعاً لموقفه من ولايته للعهد ، وإغرائه
الوليد بن عبد الملك بعزله من تلك الولاية ليفسح الطريق
لولده عبد العزيز . ولو أنه ليس من العدل أن يؤخذ الأبرياء
بذنب المسيء .

لقد روى ابن الأثير أن سليمان بن عبد الملك استعمل
يزيد بن المهلب على العراق ، وجعل صالح بن عبد الرحمن
على الخراج ، وأمره بقتل بني عقيل وبسط العذاب عليهم -
وهم أهل الحجاج ، فكان يعذبهم ويبي عذابهم عبد الملك
ابن المهلب .

والحجاج دائماً هو مركز الثارات حين يغضب الأمويون
وأتباعهم وعمالمهم على بني عقيل .

لقد وتر الحجاجُ الخليفة سليمان بن عبد الملك حين كان
يدبر الأمور سرّاً وعلانية لخلعه من ولاية العهد . وهي ترة لم

يطفئها موت الحجاج ، فظلت تنلظى على أهله وقومه . فما هو شأن صالح بن عبد الرحمن بأهل الحجاج حتى يعذبهم هذا العذاب حين صار إليه أمر الخراج في أول عهد سليمان ؟ إن هناك ثأراً دفيناً بين الحجاج وبين صالح بن عبد الرحمن ، والعرب قوم لا ينسون الترات . وترجع أصول هذا الثأر إلى أوائل عهد الحجاج بإمارة العراق .

لقد كانت حرب الخوارج على أشدها بالعراق ، حتى لقد هانت على هؤلاء القوم أرواحهم في سبيل فكرتهم التي نادوا بها ، وقاموا من أجلها . وحتى لم يشهد التاريخ صلابته واستمسكاً بالموت في سبيل الرأي كما شهدته عند الخوارج . ولقد أفضت الخوارج مضاجع الأمويين ، فلم تذق عيونهم طعم النوم من شدة ما رأوه منهم .

وحمل الحجاج الناس على حرب الخوارج حملاً ، ووكتل بمناهضتهم المهلب بن أبي صفرة ، وهو رجل محارب قوى الشكيمة ، ماضى العزيمة ، سديد الرأي ، أحسن الاحتيال في الأمر ، يزاوغ في الحرب ، ويحذر البغتات ، ويديم المراقبة ،

وكان لا يؤتى للحجاج بخارجي إلا قتله ، حتى لقد قتل منهم بيديه خلقاً كثيراً

وكان لصالح بن عبد الرحمن أخُ اسمه آدم ، جرفته موجةُ الحوارج ، فسار في تيارهم ، ورأى رأيهم بعد أن فتن بفصاحة دعائهم ، وأخذ بشدة بلائهم . فلما وقع آدم في يد الحجاج لقي منه المصير الذي كان يلقاه كل خارجي ، وهو القتل . وكان حزن صالح بن عبد الرحمن على أخيه آدم شديداً ، ووجدته عليه عظيماً ، وموجدته على الحجاج مما لا تذهب الأيام بجدته . فهي كأمته في الصدور ، مستكنة في الضمير ، حتى يحين الأوان للانتقام .

ومات الحجاج قبيل وفاة الوليد بن عبد الملك وفي ظل حمايته ، فلم يدرك الموتورون منه ثأراً ، ولم ينالوا ترة ، فتحول السخط على الحجاج إلى السخط على قومه وأهله ، وانتقل الحساب من قائمة أمير العراق الحجاج إلى قوائم بني عقيل ...

* * *

ولم يكتف صالح بن عبد الرحمن بالثأر القديم بين الحجاج وبين أخيه القتل آدم بن عبد الرحمن ليتخذ سبباً لتعذيب

محمد بن القاسم الثقفي بطل السند وابن عم الحجاج . إن بطل
السند الآن حبيس في سجن ضيق مظلم من سجون واسط مع
جماعة من بني عقيل - قوم الحجاج - يساءون العذاب كلما
أجنّهم ليل ، أو أشرق عليهم من خلال قضبان السجن وميض
من صباح . فلماذا لا يُقتل بطل السند على يد صالح بن
عبد الرحمن ، كما قتل الحجاج بالأمس أخاه آدم بن عبد الرحمن ؟
ولكن بطل السند لم يقترف ذنباً يستحق عليه القتل بله
السجن ، فما هو الذنب الذي يلصق به ، وما هي التهمة التي
تُفتري عليه ، حتى يكون للقتل مستوجباً ، ولاحكم عليه بالموت
مستأهلاً ؟

هنا ستمهض أحقادُ الصدور لتشفى غليلها على حساب
الأبرياء

فرية على الأبرياء

كان آخر عهدنا بالأميرة سينا ابنة الملك ذاهر أنها حملت أسيرة إلى دمشق عاصمة الأمويين ، بعد أن استراب البطل محمد بن القاسم من أمرها ، ولاحظ عليها اتصالات خفية مع جماعة من أمراء السند المخلوعين المغلوبين على أمرهم ، وخشى أن تكون الأميرة الشرقية السمراء قد خامرت مع قومها على العرب لتثار منهم لأبيها المقتول ، ولبلادها المغلوبة ، ولأسرتها المنكوبة .

ولقد كانت الأميرة سينا تُظهر للأمير العربي الشاب محمد بن القاسم قبل ترحيلها إلى دمشق ما تحببت به إليه ، حتى شغفته حباً ، وكان يبدي لها من الاهتمام بها والعطف عليها والمودة لها ما شهدت به سماء السند وأرضها .

والحق أن ابنة الملك المقتول لم تتظاهر بحبها للأمير العربي بطل السند إلا لتتخذ من ذلك الحب الظاهر وسيلة إلى غرضها ، وسبباً لبلوغ أهدافها . فكانت تسارهُ بالإشارة ، وتُخافيه بلحن

العبارة ، في لكنة سنديّة ، ولوثة غير عربيّة ، لعلمها تتأقّف من بين شفّتيه الكتومين خبراً يفيدُ المخامرين من قومها ، وينفعُ المتأمّرين خفية من بنى جنسها .

وحاولت سينا أن تُخفي شأنها قدر ما وسعها الإخفاء ، حتى لا ينفضح أمرها ، أو ينيكشف سرها ، فتبوء خطتها بالحيلة ، وتنقلب أمورها إلى أسوأ منقلب .

ولكن بصيرة القائد الشاب كانت أهدي من الشمس حين تجدُ فيها الأبصار هداية إلى معالم الطريق ، فأدرك من نظراتها ما تخفي سريرتها ، ورأى في عينها دليلاً على خبايا فؤادها ، ورأه من أمرها أنها كانت تخرج في الليالي المشححة بالسواد ، تطأ الثرى في رفق ، وتتسلل بين الشجر في حذر ، وتصلُ الخطى في نفس مكتوم ، ثم تعود بعد ذلك كأنما انزاح عن صدرها هم ثقيل . . .

وذات ليلة خرجت سينا كعادتها ، وكان ابن القاسم قد بث لها من الأرصاد من يتابعون خطوها ، ويقفون على جلبة أمرها . فسُمّرت عيونهم المفتحة على شبّحها المجال بسواد الليل ، وظلّوا خلفها لا تنحرف عنها أبصارهم ، ولا يجيد عن مسيرها

مسيرهم ، إلى أن رأوها تلاقى ثلاثة من الرجال لقاء خفيفاً سريعاً ، امتدت فيه يدها بشيء وامتدت فيه يد أحدهم بتلقف ذلك الشيء على حذر ، ثم مضى الثلاثة بمعنيين في سير حثيث يدنو من الجرى ، وعادت الفتاة أدراجها ، وهي موقنة أن أحداً غير الليل والثلاثة الشخوص لم يشهدا . وأنها آمنة في كنف الظلام الخالك ، من أن تأخذها عيون المتطلعين ، وأبصار المتجسسين ... وعاد عيون ابن القاسم ينبئونه بما رأوا ، ويخبرونه بأمر الفتاة المريبة التي تتخذ من ملاءة الليل الأسود سراً لخطتها السود . . . واستدعاها ابن القاسم ، وأخذ معها في الحديث وأعطى ، وأبدأ وأعاد ، إلى أن استيقن أن الأميرة ممالئة ، وأن العطف الذى أبداه نحوها كان فى غير موضع ، وأن الحب الذى كانت تتظاهر به كان سراً لأخبت الأهداف ، وأن رغبة الثأر لأبيها تتحرق فى قلبها ، فود لو أن أدب الحرب فى الإسلام كان يُجيز قتل امرأة ! إذن لتخلص منها بأيسر طريق كما يُتخلص من الجواسيس . ولكنه رأى أن يبعث بها أسيرة إلى عاصمة الخلافة فى دمشق ، لعل الله يُحدث بعد ذلك أمراً ...

ومضت بضعة أعوام على الأميرة الأسيرة سينا، قضتها في دمشق وحيدة بعيدة عن أرضها ، ولكنها لم تكن غير واحدة من هؤلاء الموالى والجوارى الذين كان الولاة والعمال يهدونهم إلى بلاط الخليفة . ولقد كانت سينا أول أمرها مولاة في بلاط الوليد ، ثم أهداها إلى واحد من أسرته . واختلفت عليها في خلال بضع السنوات من الحوادث ما لا شأن لنا به ، مما لا يتصل بتاريخ ابن القاسم في قليل أو كثير .

وما يهمنا هنا أن نعرض من تاريخ حياتها في دمشق ما لا يهتم به التاريخ . إلا أننا نذكر أنها كانت وصيفة في قصور الأمراء من بنى أمية ، لعلها كانت تحسن من أمور الخدمة في القصور ما تلقته في قصور أبيها الملك ذاهر ، أو لعل نشأتها في بيت ملك كانت تُعينها على إجادة التنشئة في بيوت الأمراء ، أو لعل من الكرامة والإكرام لابنة ملك مغلوب مقتول أن لا تعامل معاملة الرقيق .

ولقد بلغ آخر المطاف بها في خدمة القصور لرجال بنى أمية أن خدمت في دار لرجل من رجال سليمان بن عبد الملك الذين اتصلوا به قبل أن تصير إليه الخلافة ، فلما استقرت له

دعائها بعد مسألة ولاية العهد أدناه إليه ، ورفع مكانه عنده ،
 وأناله الخطوة لديه . ولعل سينا الأميرة السنديّة لم تكن في دار
 أحد من أمراء بني أمية أسعد خلافاً مما كانت في دار الشيخ
 صفوان

* * *

وقضى صالح بن عبد الرحمن في مدينة واسط شهوراً يضع
 فيها أصول الحجاج للدولة الأموية على أساس يرضى عنه سليمان
 بعد أن بلغت النفقات في عهد الوليد بن عبد الملك حداً أكادت
 تنوء به موارد الدولة ، ولعل صالحاً لم ينشغل بأمر الحجاج أكثر
 مما انشغل بأمر بني عقيل - وعلى رأسهم محمد بن القاسم بطل
 السند - الذين وكل به سليمان بن عبد الملك أمر تغديبهم والقيام
 عليهم في سجنهم في مدينة واسط لقد كان يفكر في وسيلة
 يخلصُ بها جملة من بني عقيل قوم الحجاج الذي قتل أخاه
 آدم في فتن الحوارج ، وأضحى بذلك واثراً له ، وركز أطراف
 حقه على بني عقيل في البطل الشاب محمد بن القاسم . فإذا
 يصنع ليتخلص منه ومن بقية قومه بالقتل الذريع ؟

لقد كان لبطل السند في قلوب المسلمين محبة لا ينزعها

نازع ، فأحبه أهل السند حباً يندو من تقديس آلهتهم
الأقدمين ، وصنعوا له صورة في مدينة الكيرج ، كما يصنع
الناس بالتمائيل حين يقيمونها للأبطال وعظماء الرجال تخليداً
لذكرهم . وأحبه الجنود المقاتلون من رجاله حباً امتزج بالطاعة
التامة كما امتزج بلهائهم . وبكاه هؤلاء وهؤلاء حين جاءه
الأمر مع والى السند الحديد بالعزل ، وحين قيده هذا الوالى
وساقه في حرس شديد إلى العراق لينظر في أمره .

وفوق هذا أحبه المسلمون في العراق والشام ، وأخذتهم من
أبناء شجاعته وبسالته وبطولته ما جعلهم يتحدثون باسمه ، كما
كان يتحدث الأقدمون بأبطال الأساطير . . .

وما سجلت السنوات الست التي قضاها ابن القاسم في السند
فاتحاً غازياً مجاهداً في سبيل الله ، ضارباً بسيف الله أعناق
الكفر ، ومحطماً رهوس الشرك - ما سجلت عليه عيباً واحداً ،
أو نقيصة واحدة يؤخذ بها ، ويستحق العقاب من أجلها .

لقد كان أميناً على أموال المسلمين وأرواحهم ، حريصاً
على أعراضهم ، كما كان حريصاً على أعراض أهل البلاد المفتوحة
فما استحل فيها حرمة ، ولا هتك سترأ ، ولا أباغ معصية .

وكان في سلوكه نفسه ، وفي سيرته الشخصية ما كان أحسن المثل لقومه العرب ، حتى اطمأن أهل السند إلى المسلمين ، وألقوا إليهم السلام ، ورضوا بالإقامة في كنفهم ، لأنهم رأوا فيهم من العدل ما لم يجدوه ، ودخلوا في الإسلام راضين لم يُرغمهم سيف ، ولم يُكرههم عليه عسف . وحسُن إسلامهم إلى يومنا هذا ، فكسب بهم دين البيئنة أرضاً واسعة ، وقلوباً عامرة ، وعدداً كثيراً إذا أُعد عليه الحصى يتخلف . . .

فماذا يصنع صالح بن عبد الرحمن إذن ليأخذ الوتر من الحجاج الذي مات وشبع موتاً ؟ ماذا يصنع ليثأر لمقتل أخيه آدم بن عبد الرحمن من شاب برىء ، ذنبه أنه قريب للحجاج فقط ؟ وهل كانت القرابة غرماً يَحتمل فيه الأقارب المغارم دون أن يكون لهم وزر ، أو يقع منهم إصر ؟ إن الله يقول : « وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه » . فكيف يصح في مشاريع العقل وموارد الطبع أن يلزم إنسان برىء طائر غيره ، ويتحمل تبعات سواه ؟

ألا يصح لبطل السند حينئذ أن يتمثل بقول الشاعر الجاهلي :

لم كن من جناتها — علم الله — وإني بجرها اليوم صالى !

سمع صالح بن عبد الرحمن - وهو في قصر الحراج بمدينة
 واسط - أن في دمشق فتاة من السند تتسم بسماة الإمارة ،
 وتنتسب إلى الملوك من السند . فأبوها زاهر الذي قتله جيش
 محمد بن القاسم في فتح مهران . فلماذا لا تكون هذه الفتاة
 بداية الخيط الذي يصل به صالح إلى مأربه من قتل بطل السند
 محمد بن القاسم : ابن عم الحجاج ؟

خيوط المؤامرة

وقد صالح بن عبد الرحمن على عاصمة الأمويين ليعرض على أنظار الخليفة سليمان بن عبد الملك جرائد الحراج في العراق بعد أن ولاه الخليفة أمره . والحق أنه كان يُعد في حقيقته لهذه الرحلة التي جاز بها العراق إلى الشام شيئاً ، وُيبت أمراً لبطل السند محمد بن القاسم .

وكان ركبُ صالح إلى الشام فيه من الحرس والجند ما يليق بمقام عامل الحراج ، وهو الرجل الذي يجمع للدولة مالها ، ويلم لها أطراف ثروتها ، مما يعينها على التعمير والإنشاء والغزو ، والنفقة على الجيوش ، ومظاهر الترف التي أخذت بعد ذلك تزداد في العصر العباسي .

وصالح بن عبد الرحمن هذا رجل من طراز عجيب ، فهو أن يتسمع الأخبار ويتلقفها من أي فم ، ويأخذها عن أية شفة ، ويتقرب إلى الخلافة بهذه الصفة التي أدت محله منها .

وأخذت المطايا تخب وتضع في طريقها إلى حاضرة بنى
 أمية ، وتقف في مراحل الطريق ، تتزود بالماء والطعام ، وترتاح
 من مشقة الطريق ، وطول الرحلة .

وكان صالح يتبسط إلى حراسه في الحديث ، لعلمهم
 يفضون إليه بما يود أن يعرف من صغير الشئون وكبيرها ،
 وتافهها وجليلها . وفي يوم من أيام الرحلة جاءت النوبة على
 حارس من حراسه يقص على الراكب وصاحبه أغرب ما شاهده
 في حياته . فذكر الحارس أنه كان من جنود الغزوة التي بعثت
 بها الحجاج إلى ثغر السند ، وأنه رأى في هذه البلاد التي تركب
 الأفيال وتحارب عليها ، غرائب لا ينقضي منها عجب .

وكأما سقط صالح بن عبد الرحمن على ضالة كان
 ينشدها ، فلعل الرجل تخرج من بين شفثيه كامة تعينه على
 إنجاح المؤامرة التي أضناه التفكير في حوك خيوطها . وأقبل
 صالح بجملته على الحارس يصغى إليه ، وكأن كل عضو من
 أعضاء جسمه أذن تتسمع . . .

وتوقع صالح أن يذكر محمد ابن القاسم بما يتحرق إلى شفاء
 غلته منه ، فما وجد إلا لسان صدق ، وشهادة خير .

قال له صالح : وكيف كانت سيرة ابن القاسم بينكم ،
 وخطته فيكم ؟ فأجاب الرجل :

— كان والله المثل الأعلى في سيرته وخطته ، حتى لقد ودّ كل
 واحد من جنده أن يكون مصبوباً على قلبه . فهو يعطف على
 الصغير منا ، ويوقر الكبير فينا ، ويأخذ نفسه في السلوك بما
 يأخذ به المسلم المتصوّن نفسه ، فلا جور ولا طمع ، ولا صلف
 ولا غرور ، ولا فسق ولا فجور .

— ولكنه ابن عم الحجاج الذي فجر في العراق ، وأطال
 الله الطّول له إلى أن أخذه وأراح العباد منه . ثم جاء الخليفة
 سليمان ، وهو أحق الناس بالخلافة علينا ، والولاية فينا ، حتى
 قال الناس فيه هذا القول المأثور : سليمان مفتاح الخير ، ذهب
 عنهم الحجاج ، وولى سليمان . أفلا كان فيه بعض ما كان في
 ابن عمه من فجور ؟

— والله يا ابن عبد الرحمن ما عهدنا على الرجل من سوء ، ولا
 عرفنا فيه مذمة تأخذها عليه ، ونعيها منه . وليس بحتم أن يكون
 الرجل كابن عمه . فقد يختلف الإخوان في الطبع والأصل واحد ،
 والأب واحد ، والأم واحدة . وقد يلد الحرّان غير نجيب ... وقد

يخرج الخبيث من الفضة الخالصة ، كما قد يخرجُ الخبيث من الطيب . وقد يكون للحجاج من العيوب ما يؤاخذه عليها المؤاخذ ، بعد أن سفك من دماء المسلمين ما سفك ، وأزهق من الأرواح ما أزهق . وهذه خطبته بالكوفة حين دخلها فخطب الناس بغتة ، وهددهم وأوعدهم ، حتى خافوه مخافة شديدة ، وكأن الله ابتلى أهل العراق بهذا الرجل ، يحكم فيهم بحكم الجاهلية ، لا يقبل من محسنهم ، ولا يتجاوز عن مسيئهم . فقل في الحجاج ما شئت ! أما ابن عمه محمد بن القاسم فلم يكن والله في شيء من ذلك كله . . . لقد كنا نخشى أن تغره الإمارة ، وحادثة السن ، ومكان القيادة ، ووفرة المال ، وملازمة التوفيق ، فوالله ما اغتر ، ولا تكبر ، ولا زادته الانتصارات إلا تواضعاً ، كالشمس تعلقو في كبد السماء ، ويدنو شعاعها وضوؤها .

— كأنك تحدثني عن ابن القاسم بينكم ، فهلا حدثتني عنه مع أهل السند التي فتحتها ؟

— إن الحديث عن ابن القاسم يشرفه من حيث نظرت إليه ، كالبدن من حيث التفت إليه يهدى إلى العين نوراً ساطعاً ، وضياء لامعاً . . . لقد كان والله كريماً مع سينا كرمياً لا يليق بما صنعت ؟

— ومن سببنا هذه التي أكرمها الغلام الثاني من غلمان بني
ثقيف ؟

— أتسألني عن سببنا التي سار بذكرها الركبان ؟ إنها أميرة
من أميرات السند ، وقف أبوها في وجه المسلمين الفاتحين فقتلته
جيش محمد بن القاسم . وقد رزق البطل الشاب لما آلت إليه
أمورها بعد مقتل والدها . فأكرمها ورعاها صوتاً لبنت الملوك أن
تبتذل حياتهن . ولكنها لم تكن أهلاً لرعاية البطل الفاتح وعنايته ،
وكان أيسر جزأها على نية الممالة مع جماعة من قومها أن يقطع
رأسها . . . فقد كانت تتجسس على محمد بن القاسم وهي في
كنف رعايته ، وتتعقب أخباره وأخبار خططه ، وهو مطمئن
غير مضمهر سوء ظن ، إلى أن انكشف له من أمرها ما كانت
تستره وتبالغ في كتمانها . فأرسلها أسيرة إلى العراق ، حيث بعث
بها أمير العراق إلى بلاط دمشق . وهناك تنقلت بها المصائر من
قصر إلى قصر . ومن دار إلى دار . حتى انتهت آخر الأمر إلى
دار الشيخ صفوان ، صفي الخليفة سليمان بن عبد الملك من قبل
أن تصير إليه الخلافة .

كان صالح بن عبد الرحمن يصفى إلى هذا القسم من
 حديث الحارس الذى فى ركبته إصغاء بالغاً ، حتى كأنه كان
 يلتمهم كل كلمة منه ، ثم هنز رأسه هزة الذى وجد حلاً ، أو
 انتهى إلى قرار ، وقال :

— وهى الآن فى دار الشيخ صفوان . . .

في دار صفوان

بلغ ركب صالح بن عبد الرحمن عامل خراج بني أمية على العراق أرباض عاصمة الأمويين ، وقد بدت على مرمى النظر شواهد الأبنية والمصانع التي جدّ بنو أمية في تشييدها ، وخاصة الخليفة البناء المعمر الوليد بن عبد الملك ، الذي كان الناس يلتقون في زمانه فيسأل بعضهم بعضاً عن الأبنية والعمارات ، كما كانوا يسألون في عهد الخليفة التقي الورع عمر بن عبد العزيز أيّ وردٍ قرعوا ، وكم حفظوا من القرآن ، وكم قاموا من الشهر ؟ وبدت للركب الذي كان حديث عهد بدمشق في عصر الوليد قبة الرصاص بالجامع الأموي التي وصفها الرحالة ابن جبير بعد ذلك بزمان طويل فقال : إنها من أعظم ما شاهده من مناظر الدنيا الغربية ، وهياكلها الهائلة البنيان . وعجب ابن جبير فوق ذلك من الحجارة التي في جدر المسجد ، والتي يزن كل واحد منها قناطير ممتنطرة ، ولا تنقلها القبيلة فضلاً عن غيرها (فالعجب كل العجب من تطليعها إلى ذلك الموضع المفرط السمو ، وكيف

تمكنت القدرة البشرية لذلك ، فسيحان من ألهم عباده إلى هذه الصنائع العجيبة .

ولو أن ركب صالح بن عبدالرحمن تأخر به الزمان أربعة قرون أو تزيد قليلا . لما سمع في وصف الجامع الأموي بدمشق — الذي بناه الوليد بن عبد الملك — أجل ولا أدق مما وصفه به الشاعر العربي الفارسي أسامة بن منقذ الكناني حيث قال :

وكان جامعها البديع بناؤه	ملك يميز من المساجد جمحفا
ذوقه رفعت فضاهت قنة	ومنابر بنيت فحالت معقلا
تبدو الأهلة في أعاليها كما	يبدو الهلال تعاليا وتهللا
ويريك سقفاً بالرصاص مدثراً	يعلو جداراً بالرخام مزملا
قد ألف الأقسام بين شكوله	فغدا الرخام بذاته متشكلا
لم يرض تجليلا بجص فانبرى	بالفص يعلو والنضار مجللا
فإذا تذر الشمس فيه تخاله	يلقأ ^(١) تألق . أو حريقاً مشعلا
فكأنما محرابه من سندس	أو لؤلؤ وزمرد قد فصلا
وتخال طاقات الزجاج إذ ابدت	منه للحظك عبقرياً مسدلا
تبدو القباب بصحنه لك مثلما	تبدو العرائس بالحلى لتجتلى
وعلت به فوارة من فضة	سالت فظنوها معيناً سلسلا

(١) اليلق : البياض الشديد .

وتفرق ركب صالح في دمشق ، ومضى كل على وجهه حتى يقضى صالح المهمة التي جاء من أجلها . وهم لا يعلمون أكثر من أنه جاء لشأن من شئون الخراج الذي ولى أمره ، ولا يدرون شيئاً مما يدور في باله حول محمد بن القاسم ، وما يُعده له في حقيقته . . .

ومضى صالح بن عبد الرحمن إلى دار الشيخ صفوان ، وهو صديق قديم له ، وقد التقيا في حب الخليفة سليمان بن عبد الملك قبل أن تصير الأمور إليه . فسلم كل منهما على صاحبه ، ورحب المضيف بضيفه ، وفرح لرؤية صديق قديم ، وأخذ كل واحد منهما يسأل صاحبه عن طائفة من المسائل ، مما يخوض الصحاب القدامى فيها حين يلتقون ويتداني بعينهم .

وأراد الضيف صالح بن عبد الرحمن أن يستطلع أمر الوصيعة السندية سياتا التي بلغه في آخر مراحل رحلته أنها نازلة بدار صفوان التي هو الآن في رحابها . . .

ولا يعدم المرء ذو الحاجة أن يجد سبلا كثيرة يستطلع بها طلع الشيء الذي يريده ، فصالح بن عبد الرحمن عامل على خراج البصرة ، والبصرة ثغرا تنقطع السفن بينه وبين ثغور السند

التي فتح الله بها على المسلمين . فلم لا يأخذ الحديث بعضه برقاب بعض ، حتى يصل إلى قصة فتح السند من أولها ، أو إلى قصة محمد بن القاسم فيها ، وإلى قصة العذاب والسجن الذي وكل به صالح بن عبد الرحمن نفسه ؟
 وكان من طبائع الأشياء ومساق الحديث أن تُذكر الأميرة سيمتا في مجال الحديث عن بلادها ، وأبيها الملك ذاهر المقتول ، وفتح المسلمين لهذه الأرض الشاسعة .

واستدعى الشيخ صفوان الوصيصة السندية سيمتا ليراها الضيف -
 الوافد من العراق صالح بن عبد الرحمن عامل الخراج على البصرة .
 فدخلت وقد تغيرت ثيابها ، وتغيرت لكنتها السندية التي كانت في لسانها منذ بضع سنوات ، فهي تجيد الكلام في لسان عربي مبين . ولو أن صالح بن عبد الرحمن قد رآها يوم مقتل والدها ورآها اليوم لما أدرك تغيراً في سمعتها إلا بمقدار ما يُغيره مرُّ بضع سنوات من عمر الإنسان . . . فهي لا تزال سمراء ، ولا تزال عيناها تفتحان وتغمضان على أعمق الأسرار . . . وما زال صالح يثير فيها بالأسئلة كوامن حزن قديم عميق . فتارة يذكرها - أو يدعوها إلى تذكر - ماضيها في قصر والدها الملك ذاهر حيث

نشأت وعلى وجهها نضرة النعيم ، وحيث كان الجوارى فى قصر
 زاهر يقبّلن مواطئ أقدامها ، وحيث كانت الدنيا كلها فى
 يديها ، فلها ما تمنّت ، وعلى الأقدار أن تجيب . . .

وتارة يذكّرها - أويحملها على أن تذكر - أحداث الفتح ،
 حيث لقي أبوها مصرعه على يد رجل مسلم وهو يدافع عن حماه .

وتارة يذكّرها بالأسر الذى وقعت فيه ، والمصير الذى
 صارت إليه منذ أن بعث بها محمد بن القاسم أسيرة إلى بلاط
 الأمويين . وسألها صالح بن عبد الرحمن عما بقى لها فى بلاد السند
 بعد أن قتل أبوها وضاع ملكه ، وتهاوى التاج من فوق رأسه ؟
 فأجابت :

- لقد خطبني فى السند - قبل أحداث الفتح العربى بتقليل -
 أمير من أشرف أمراء السند نسباً ، وأكرمهم محتدأً ، وكنت
 أحلم بالسعادة فى قربه ، وأتعجل دورة الزمان لأصير ملك يديه .
 ودار الزمن دورة قصيرة من دوراته ، ولكنها كانت محملة بما لم يكن
 فى حسابنا ، فمات أبى الملك زاهر قتيلاً فى معركة الفتح العربى
 وزال الملك الذى كنا نتمرح فى أفيائه ، وراح الحبيب الذى
 كنت أرجو وصاله . . . ولا أدرى أين راح . ولا أيا ن دارت به

عجلة الأيام ! وهأنذا الآن هنا بعيدة عن الوطن المنكوب ، فلا
أهل ولا مال ولا حبيب . فمن يردني إلى أرضي التي افتقدتها ،
وإلى أهلى الذين ضربت بينى وبينهم الأيام بالأسداد والأسوار
واللجج ؟

— إن صديقى صفوان قد تؤلمه شكواك كما آلمتنى ، ولعلنى
أنا الذى هيجت لك الجرح الذى يئدى قلبك ، ولعلمها أول مرة
يستمتع فيها صفوان إلى مثل هذا الحديث الموجه . . . وأنا
ضمن لك عند هذا الشيخ ذى المروعة أن يعتقك ويؤمن على
ردك سالمة إلى بلادك البعيدة ، حيث قد تصادفك فيها عجائب
المقدور بالأهل الذين تتوقن إليهم ، وبالحاطب الذى لا تعلمين
ما أصارته إليه الأمور . ولكن لى عندك شيئاً واحداً فيه خلاصك
وعودتك إلى وطنك .

— أرجو أن يكون فى طاقى بلوغ ما تريد .

— لن يكلفك ذلك شيئاً ، فما هى إلا كلمة من بين شفقتك
يتقرر فيها مصير محمد بن قاسم عدوك وعدو أبيك من قبل . . .
— آه من ابن القاسم أيها السيد الكريم ! لقد وترنى بالأسر ،
وترى أبى بالقتل ، وترى السند كلها بالفتح . . . ! ولقد نسيت

السندُ الآن ترات الفتوح والغزو بعد أن دخلوا في الإسلام ،
ودانوا بالطاعة ، ونزلوا على إرادة الفاتحين . . . أما ترة قتل أبي
وترة أسرى فأرجو أن لا تطول بي الأيام حتى آخذ بهما .

— وهل تضميرين العداوة لابن القاسم إلى هذا الحد ؟

— وأية عداوة أشد مما لقيت من هذا الذي كان يظهر لى
الود ويسر لى البغضاء؟ لطالما شهدت أودية أنهار السند آثار
حبه لى! ولو سألتهم حصى نهر مهران لنطق من وقع أقدامنا عليه!
— تقولين إن محمد بن القاسم أحبك أيتها الأميرة السمراء!
— نعم أحببني حتى أسلمت له قلبي ، وسلمته زمام هواي ،
ولكننى ما كنت أدري أنه كلف بالنساء ، متقلب في الأهواء .
ولو كنت أعلم أنه لا يثبت على حب ما منحته من نفسى
ما منحت ... فلما أبنت له العيب الذى يعبته بقلبي ، رمانى
بدائه ، وتجننى على ذنب التآمر والخامرة ، ووجد السبيل إلى
الخلاص منى ، والقذف بى إلى مطارح هذا الإسار البعيد .

— وما ظنك أيتها السمراء لو أبلغت خليفتنا المحبوب سليمان
ابن عبد الملك على لسانك أن محمد بن القاسم لم يكن — حين قتل
أباك واحد من جنده — أميناً عليك ، ولا عفيفاً معك ، ولا
صائناً فيك أمانة العذارى المصونات ؟

غضب الخليفة سليمان

دخل صالح بن عبدالرحمن على الخليفة سليمان بن عبدالمالك يعرض عليه من أمور خراج العراق ما كان موكولا به ، فسلم تسليم الخلافة ، فلما أذن له سليمان بالجلوس تبع ذلك بسؤاله قائلاً :

— كيف حال العراق يا صالح بعد أن استعملتُ عليه يزيد بن المهلب وهو الضارب بسيوفنا ، المتقلب في نعمنا ، المقيم على طاعتنا ؟

— إن العراق يا أمير المؤمنين يدين لك بالطاعة ، ويقر لك بالبيعة ، ويؤكد لك العهد الذي كان أخوك الوليد يريد أن ينزعه منك ، ويكرر لك التهنئة بما صرت إليه من ولاية أمر المسلمين .
— وما حال الخراج يا صالح منذ ألقينا تبعاته عليك ؟

— تَعَلَّمْ يا مولاي أن الحجاج مع عنفه الشديد لم يستخرج من خراج العراق كبير أمر . . . وما كان — قبحه الله — يصلح للدنيا ولا للآخرة ، لقد ولى العراق في العام الخامس والسبعين من

الهجرة ، والعراق أوفر ما يكون خراجاً ، فأخسَّ به إلى أن صيره إلى أربعين ألف ألف ، مع أنه بلغ في عهد الخليفة الثاني عمر ابن الخطاب إلى عشرة آلاف ألف ومائة ألف ألف . وكان من الواجب أن يزيد خراج العراق مع زيادة الفتوح ، واتساع العمارة . ولكن الحجاج لم يكن يعرف كيف يحتال للمال فيجلبه ويعمر به خزائن الدولة ، فلا بد من بعض الوقت يمضي ، حتى أستصلح من أمر الخراج بالعراق ما فسد . . . والله يبلغنا الأمل بك ، ويطيل العمد لك . . .

— آه يا ابن عبد الرحمن لقد ذكرتني بالحجاج ومساوئه ! ذكرتني المظالم التي ارتكبتها ، والسجون التي مملأها بكل من أخذه بريية ، والأرواح التي أزهرتها . . . ثم جرّني التذكر إلى ما كان من موقفه مني في مسألة ولاية العهد ، وأنا أحقُّ بها من ابن أخي الوليد . ولقد رد الله كيده في نحره فأفسد عليه وعلى قتيبة بن مسلم تدبيرهما ضدى . فأنا ما زلت كارهاً لهذا الرجل الذي استوجب سنطى عليه بما سلف لي منه . . . والشئ بالشئ يذكر ! ما حال قوم الحجاج من بنى عقيل ، وقد طلبتُ إلى يزيد بن المهلب أن يخلص أموالهم ويعذبهم ، فترك يزيد ذلك إليك ؟

— إن بنى عقيل يا مولاي يلقون في مدينة واسط جزاء ما
أسلف الحجاج من ظلم وعسف ، ولا أظنهم إلا خليقين بالعذاب
الذى يُصَّب عليهم اليوم في سجن واسط ، فإن هواهم كهوى
عميدهم الحجاج لم يكن معك يوماً ما ، ولا كانت قلوبهم دمعك
قبل أن يعهد الله إليك أمر المسلمين ، ولا بعد أن صار إليك
أمرهم . فليذوقوا في غيابات السجن وبال أمرهم ، وجزاء ميلهم .

— ولكن يؤلنى يا ابن عبد الرحمن أننى أغلقت في بداية
عهدى السجنون التى ملأ بها الحجاج الأبرياء ، وأخليت سراح
الأسرى الذين كان يأخذهم بأذى الشبهات ، ثم أجيء أنا فأفتح
سجن مدينة واسط — التى بناها الحجاج لدولتنا في العراق —
لأملأ به أهل الحجاج وقومه من بنى عقيل .

— ليرتح ضميرك ، ولتطمئن نفسك يا أمير المؤمنين بما
صنعت ! فإن قوم الحجاج قد استطالوا وتكبروا ، وظنوا أنهم
فوق منال كل سلطان ، حتى لقد بلغ من جرأة أحدهم — وهو
محمد بن القاسم — أن يستعلى في السند حين نصر الله جيش
المسلمين على يديه ، فعلا في تلك البلاد علواً كبيراً ، وظن أنه
أكبر من حدود الله التى أخذ بها عباده ، فاعتدى على سياتنا بنت

الملك ذاهر ملك السند اعتداء فاحشاً ، ونال من عفتها ما لا يصدر عن كواسر الوحوش ، وما لا يليق بينات الملوك ، وأميرات القصور . ولو أن الجناية الفاحشة ، والفعلة البالغة الفاجرة وقعت من جندي من عامة الجيش لعظمت فيها البلية ، وجل فيها الخطب ... فكيف وقد وقعت من القائد الغر الذي أرسله الحجاج إلى السند ، ليكشف لأهلها عن مساويه ، ويبين لهم عن مخازيه . فكل عيب فيه فهو مردود إلينا نحن العرب ، وكل فضيحة منه فهي منسوبة في نهاية المطاف إلينا ، وعائدة علينا . . .

— ومن أنباك بهذه الشنعاء يا صالح ؟

— أنباتني بها الضحية نفسها ، التي أوقعها سوء حظها في

مخالب وحش من وحوش بني عقيل ! أخبرني بها الفتاة السندية سبتا بعينها ، وهي في دار الشيخ صفوان ، وما داره منا ببعيدة .

— يأبي الله يا صالح إلا أن يكشف من قوم الحجاج كل

يوم عورة جديدة ! إن الحياة في السجن لا يستحقها مغرور

بني عقيل ! إنه لحقيق أن تسلب منه الحياة بعد الذي سمعت

منك عنه . وأنا واثق مما قلت ، فلا حاجة إلى تحقيق أو

استشهاد بأحد . ولا أجد غيرك يا صالح أقدر على القيام

باستلال نفس هذا الفقى الغر من بين جنبيه ! ففى أنجزت
 مهمتك هنا وعدت إلى العراق ، وحللت فى مدينة واسط حيث
 دار الخراج تنتظر عودتك ، فلا تبطئ فى تنفيذ ما يستحقه ابن
 القاسم من الجزاء .

* * *

وانقضت مهمة صالح بن عبد الرحمن فى شأن الخراج ،
 وهى التى من أجلها وفد على دمشق . وعاد إلى واسط وقد حمل
 من الخليفة سليمان تفويضاً بقتل محمد بن القاسم الثقفى ، وإذا
 زاد بقتل بنى عقيل كلهم المحبوسين فى سجن واسط فإنها زيادة
 يرجو بها زيادة الحظوة عند الخليفة سليمان . . .

وما كادت المطايا يبلغن واسط - مدينة الحجاج - بما
 يحملن من صالح بن عبد الرحمن ورجال حرسه ، ولم يكذب
 المسافر العائد يقر عيناً بالإياب ، حتى خيم على المدينة الصاخبة
 وجوم عميق . . . وسرى النبا من واسط إلى كل بقعة من بقاع
 الأرض ، وأسبقهن دمشق - بأن صالح بن عبد الرحمن عامل
 خراج سليمان على العراق قتل فى السجن محمد بن القاسم
 - بطل السند - وقتل قومه من بنى عقيل . . .

يقظة الضمير

لم تأخذ سياتا إلى هذه اللحظة ثمن الفرية التي افترتها على البطل الشهيد . . . لقد وعدنا صالح بن عبد الرحمن ، وهو يخيط أطراف مؤامرتة ، أن يساعد على إطلاق سراحها ، وردها إلى قومها في بلاد السند ، لعلها تلتقي هناك شمل أسرتها متجمعاً بعد أن سكنت حركة الفتوح ، ولعلها تعود فترى حبيبها الأمير السندي الذي كان مخاطباً لها ، ففرقت الأحداث ما بين الاثنين . . .

ولكن صالح بن عبد الرحمن كان في شغل عن الوعد الذي وعد به سياتا . . . لقد كان في هم من أمر الحراج وزيادته حتى يزيد في نظر الخليفة سليمان قدراً ومكانة ، وهل فكر عمال الحراج في أمر غيرهم مثل تفكيرهم في أمر أنفسهم ؟
 ألم يكن عمال بني أمية قبل هذا العهد الذي نحن بصدده الكلام فيه يزيدون في الحراج ما يرهق الناس من أمرهم عسراً ، حتى ضج الناس وضاقوا ؟ ألم تكن رغبة معاوية - أول خلفاء

هذه الدولة - أن يزيد الخراج في مصر على كل امرئ قيراطاً ،
فامتنع وردان مولى عمرو بن العاص أمير مصر قائلاً : كيف
أزيد عليهم ، وفي عهدهم أن لا أزيد عليهم ؟

ألم يستقل الخليفة عبد الملك بن مروان قدر الخراج في عهده
على كل رأس ، فبعث إلى عامله ، فأحصى الجماجم ، وجعل
الناس كلهم عمالاً بأيديهم ، وحسب ما يكسب العامل سنة
كلها ، ثم طرح من ذلك نفقته في طعامه وإدامه وكسوته ،
وطرح أيام الأعياد في السنة كلها ، فوجد الذي يحصل بعد
ذلك في السنة لكل واحد أربعة دنانير ، فألزمهم ذلك جميعاً
وجعلها طبقة واحدة ؟

لقد كان همّ عمال الخراج أن يرضوا الخليفة ، ولا يكون
رضاه إلا بالزيادة في الخراج . . . ففهم يفكر صالح بن
عبد الرحمن إذن في أمر سينا ابنة الملك زاهر ، أو في غيره من
توافه الأمور ؟

* * *

جلست سينا ذات يوم في مكان خدمتها بدار صفوان
تتحدث مع بجارية من جوارى الشيخ الثرى كان اشتراها من

سبى فارس وأغلى فيها الأثمان . وكان في الجارية الفارسية براءة في الحديث ، ولطف في مداخل القول ، وذكاء يبدو على بريق عينها ، فوق ما حباها الله به من رقيق الجمال .

ولقد كانت الجارية الفارسية حديثة عهد بالاجتلاب من بلادها ، ومررت في طريقها إلى الشام بمراخل ، كانت البصرة إحداها . وفي البصرة سمعت طائفة من الأخبار التي كانت تتلقفها أفواه الغادين والرائحين في هذا الثغر الإسلامي الذي كان يموج بألوان من الخلق

وسمعت الجارية الفارسية فيما سمعته أن بعض بلاد السند قد انقضت على الدولة الأموية ، وأن ملوك السند رجعوا إلى ممالكهم ، وأن الأمير جيشبة بن زاهر ملك السند المقتول قد رجع إلى مدينة برهمناباذ . وجيشبة هذا هو أخو الأميرة سينا التي كان لها مع ابن القاسم بطن السند شأن أي شأن جلست سينا تستمع إلى هذه الأنباء من رفيقتها في الرق ، وزميلتها في دار الشيخ صفوان . ولما ذكر اسم أخيها جيشبة على مسمعا عادت بها الذاكرة إلى ماض لا ينسى

لقد كان جيشبة هذا أحد الشبان الثلاثة الذين كانت

تسلسل إليهم الاميرة سيتا في ظلمات الليل الأليل ، لتحمل إليهم في مطاوى الظلام كل ليلة أنباء عن محمد بن القاسم أمير السند وقائد جيوش المسلمين فيها . فهي إذن كانت عيناً على المسلمين وجاسوساً على جيرشهم وبطلهم في السند ، وكان العدل وعادل القصاص يقتضى أن يقطع رأسها حين انكشف أمرها ، ولكن البطل العربي الشاب أبدلها من القتل بالأسر .

مر هذا الماضي الذى أوجزناه في شريط طويل أمام عيني سيتا ، وتذكرت مروءة محمد بن القاسم معها ، وحبها لها ، وصيانتها لشرفها ، وحفظه لعرضها . وكيف قلبت كل هذه الفضائل إلى أضدادها أمام صالح بن عبد الرحمن عامل خراج سليمان على العراق ، لعلها تشفى حقدتها على بطل السند لقتل والدها وضياع بلادها . أو لعلها تظفر من هذا الافتراء المحض بثمان بنحس وهو أن يفك أسارها ، ويطلق سراحها ، وتعود إلى أرضها وقومها وخاطبها . . .

وتذكرت سيتا فوق ذلك كرم ابن القاسم في معاملة أهلها وأهل السند عامة ، حتى بكوه يوم صدور أمر الخليفة الجديد سليمان بعزله من إمارة السند وقيادة الجيش ، فاحتقرت نفسها أن

يكون هذا جزاء من أحسن إليهما ، وبرّها ، واقتضاه الشرف العربي والخلق العربي أن يصون لها شرفها .

وأخذ ضميرها يؤنّبها ، ويتنبه فيها شيئاً فشيئاً ، حتى بات يعذبها بوخزاته ، وألم حسابه . فلم تطق سيتا صبراً على عذاب لا يطاق بجانبه عذاب الأسر ، ووجهت الحديث إلى رفيقتها الجارية الفارسية قائلة :

— يا أختاه ! إن السند الذين تخبرين الآن عنهم هم قومي ، وجيشية هذا هو أخي ، وذاهر هو أبي الذي قتله محمد ابن القاسم حين فتح مملكتنا وأضاع ملكنا . . . والحق أن ابن القاسم لم يقتل أبي بيديه ، ولكنه قتل على يديه . . . قتله القاسم ابن ثعلبة بن عبد الله . فهو اسم سيظل عاكفاً على ذاكرتي حتى أوسد في التراب . . . ولا أدري يا أختاه لم حملت كل هذا الحقد على محمد بن القاسم ؟ لأن اسمه اقترن دائماً بمقتل والدي ذاهر الذي أحببته بما لا تحب به ابنة أباه ؟ أم لأنه ضيع الملك الذي بناه أجدادي في مئات السنين ؟ أم لأنه شتت شمل أسرتي فتفرقوا بعد أن كان شملهم جميعاً ، وأمرهم مجموعاً ؟ أم لأنه أرسلني إلى الأسر في العراق والشام حتى بلغت بي الأيام هذا المقام ؟

لقد اعترفتُ أمامَ صالح بن عبد الرحمن عامل خراج
 الخليفة سليمان بأن محمد بن القاسم عبث بشرفي ، ولم يصن
 عرضي . وما كنت - شهد الله - إلا متجنبة ومفترية على رجل
 برىء لم أر الكرامة مكتملة إلا فيه ، ولا الشرف لاصقاً إلا به ،
 ولا الأمانة إلا أولى فضائله . وإن ضميري الآن ليعذبني عذاباً
 لا أظن أن أحداً من العالمين قد لقيه . فأشيرى على يا أختاه !

- بماذا أشير عليك يا سبتا وقد سبق السيف العذل ؟ أما
 سمعت الأنبياء التي تجاوزت بها أنحاء العراق ، واهترت جنباته ،
 واحتملها اليريد إلى الشام بأن محمد بن القاسم - بطل السند -
 قد قتله صالح بن عبد الرحمن عامل الخراج لسليمان ، وقتل معه
 قوماً من بني عقيل ؟

- قتل محمد بن القاسم ! ولا تزال القرية التي افتريتها عليه
 عالقة به ؟ ! إن هذا لن يكون ! من يسبغ الخليفة سليمان بن
 عبد الملك أني اختلقت على محمد بن القاسم ما لم يتسرب به
 الوهم إلى نبالة نفسه ، وشرف خلقه ؟ من يسبغ الخليفة أني
 ادعيت على الرجل الشريف ما هو منه براء ؟ إن سماء السند
 وأرضها ، وجبالها وأوديتها تشهد بأن محمد بن القاسم برىء مما

نسبته إليه ، واختلقته عليه .

ومضت الجارية الفارسية — وقد أذهلها ما سمعت من سينا وما رأته منها — إلى سيدها ومولاها صفوان ، وأباغته ما حدث . فاستقدم سينا إليه واستوضحها الأمر ، فأعادت عليه ما قالته لزميلتها .

وانطلق صفوان إلى قصر الخليفة سليمان وأنباه بما قالت سينا كلمة كلمة ، لم يخرم منه حرفاً واحداً .

وكان في سليمان عدالة وتحري الإنصاف ، فقد اتخذ الرجل الطيب والمسلم المثالي عمر بن عبد العزيز مستشاراً له ، وعهد إليه بالخلافة من بعده ، لما لمح فيه من الخير والفضل والحرص على مصالح المسلمين ، ولم يعهد بها إلى أحد من أبنائه ، كما كان يحرص أسلافه من الأمويين .

فاهتز الخليفة سليمان لما سمعه ، وأمر بسينا أن تحضر وأن تقرر بين يديه ، فحضرت وأقرت ببراءة ابن القاسم مما اتهمته به حقداً وانتقاماً .

وعز مقتل محمد بن القاسم على سليمان مأخوذاً بفرية لم تخطر له على بال ، ولم تعلق له بوهم ، ولم يتلوث ضميره

بالتفكير فيها بشهادة المفترية نفسها . فأمر بها أن تقتل كما تسببت في قتل بطل السند بالظلم والعدوان ، والإفك والبهتان ...

* * *

ومضت العصور متتابعة تحمّل محمد بن القاسم بطل السند بعض الإنصاف حيناً ، وبعض الجحود أحياناً ، فضل عليه التاريخ بإفاضة الحديث عنه كما يُفِيض على الفاتحين والأبطال . ولم يجد عليه التاريخ - بعد أن أدخل الملايين في الإسلام - إلا بشتى يسيرة من الأخبار لا تتكافأ مع ما قام به من جلائل الفتوح ، والجهاد في سبيل الله .

ولعل هذه الصفحات هي أول كتاب يكتب في تاريخ فاتح السند : محمد بن القاسم الثقفي ، رحمه الله . وعطر ذكره ...

* * *

مصارع الفاتحين

في عهد الخليفة سليمان

لعل أعجب ما في عصر الخليفة سليمان بن عبد الملك - وهو لم يزد في خلافته على سنتين وستة أشهر - أن ثلاثة من أبطال الفتح الإسلامي لقوا مصارعهم على يديه أو بتوجيه منهم .
وأول من قتل من الفاتحين المسلمين في عهده هو الفتى الثقفى المغوار ، والبطل الشاب الجريء محمد بن القاسم الذى قرأنا من أنبائه وأخباره إلى الآن ما لا حاجة معه لزيادة ، ولا موضع لإعادة . . .

أما ثانى الأبطال المسلمين الذين قتلوا بسبب الخليفة سليمان ابن عبد الملك فهو المجاهد الغازى قتيبة بن مسلم الباهلى ، الذى فتح خراسان وتركستان وأوغل فى بلاد الصين حتى خشيه ملوكها وتقربوا إليه ، والذى تدين له ألوف الألوف من المسلمين فى قلب القارة الآسيوية بأنه نشر الإسلام فيهم ، وأعلى كلمة الله بينهم ، وأنشأ فيها المساجد ترتفع من مآذنها

أصوات المؤذنين ، وهم يدعون إلى الصلاة ، وإلى الفلاح ،
ويهتفون : الله أكبر ، الله أكبر ، فتستجيب لهم القلوب ،
وتخضع النفوس ، ويدخل الناس في دين الله أفواجا ، كما كانوا
يدخلون في العهود الأولى للإسلام .

واختلف الناس في المصراع الذي لقيه القائد قتيبة بن مسلم
على يد رجال سليمان ، فمنهم من استنطق قتل مجاهد رفع الله به
ألوية الإسلام فوق كل مكان . . . ومنهم - كالمؤرخ ابن
كثير - من سوغ قتله بأنه زل زلة كان فيها حتفه ، وفعل فعلة
رغم فيها أنفه . . . وخلع الطاعة فبادرت المنية إليه ، وفارق الجماعة
فمات ميتة جاهلية . . . ولكن سبق له من صالح الأعمال ما قد
يكرم الله به سيئاته ، ويضاعف به حسناته .

والحق أن مصراع قتيبة كان شديداً على المسلمين الذين
أدركوه والذين جاءوا بعده إلى يومنا هذا . . . ولقد رثاه الشعراء
مراثى رقيقة مفعجة حزينة تتفق مع بشاعة المصراع ، منهم
عبد الرحمن بن جمانة ، والطرماح ، والشاعر جرير الذي يروى
ابن خلكان المؤرخ أنه قال متفجعاً يلوم قاتليه :

ندمتم على قتل الأغر ابن مسلم
 لقد كنتم من غزوه في غنيمة
 وأنتم إذا لاقيم الله أندم
 وأنتم لمن لاقيم اليوم مغم
 وتطبق بالبلوى عليكم جهنم..
 على أنه أفضى إلى حور جنة

* * *

أما ثالث الفاتحين الذين قتلوا في عهد الخليفة سليمان بن عبد الملك وبتحريض منه فهو عبد العزيز بن موسى بن نصير . ولقد كان عبد العزيز هذا أميراً على الأندلس بعد أن فتحها أبوه موسى بن نصير ، فضبط أمورها ، وحى ثغورها ، وأكمل فتح عدة من المدن الأندلسية . ولكن سليمان بن عبد الملك سخط على أبيه موسى بن نصير وهو بالشام ، فيقال إنه بعث إلى الجند بالأندلس في قتله . . . فدخلوا عليه المحراب وهو يقرأ الفاتحة بعد صلاة الصبح ، وضربوه بالسيوف ضربة واحدة ، وأرسلوا رأسه إلى الخليفة سليمان بدمشق ، فعرضها سليمان على أبيه فتجلد الرجل للمصيبة .

* * *

وجزع المسلمون هذه المرة أيضاً لمصرع جديد لفاتح وابن فاتح في عهد سليمان ، ولكنهم لا يزالون يذكرون أن مصرع

بطل السند كان أمعن في الغدر ، وأشد في الفرية التي أحاطت به ، والكذبة الشنعاء التي افتريت عليه .

ولعل المسلمين لا يزالون يرددون كلما ذكروا فتحاً ، أو شجاعة ، أو مروءة ، أو سؤدداً على حداثة من السن ، وميعة من الشباب . . . لعلمهم لا يزالون يرددون قول الشاعر حمزة بن بيض الحنفي في رثاء بطل السند محمد بن القاسم :

إن المروءة والسماحة والندى محمد بن القاسم بن محمد
ساس الجيوش لسبع عشرة حجة يقرب ذلك سؤددا من مولد !

ولعلمهم في وفائهم لذكرى أبطالهم ، والحالدين من رجالهم يذكرون قول الشاعر الآخر في رثاء البطل العظيم :

ساس الرجال لسبع عشرة حجة ولداته عن ذاك في أشغال